على حافةِ الكون

مجموعة قصصية، ورسائل

عنوان الكتاب: على حافة الكون، مجموعة قصصية، ورسائل
المؤلّف: مجدي يوسف
الطبعة الأولى: 1441هـ - 2020م
©جميع حقوق الطباعة والنشر الورقيّ والإلكترونيّ محفوظة
مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، 44 شارع سوتير، ط3، أمام كلية حقوق الإسكندرية، مصر
ب ض: 03- 11- 520- 00408- 5- 022
س ت: 9882
موبايل: 01030036491 هاتف: 002/034830903
بريد إلكتروني: levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net
رقم الإيداع: 2020/15605م
الترقيم الدولي: 978 - 977-6815 - 32 -2
تصميم الغلاف: د. مايكل كمال
الإخراج: القسم الفني في مركز ليفانت، بإشراف د. هانم السعيد
توزيع: مكتبة ليلي، 39 شارع قصر النيل، القاهرة، 002/23934402

على حافةِ الكون

مجموعة قصصية ورسائل

مجدي يوسف

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، 2020م

LEVANT

على سبيل التقديم

البحر والحلم

البحر..

في جزره ومده..

لا يأتي بالورود،

ويرحل باليقين

فقط.. ديناميكية الحياة!

أنا أفكر.. إذًا أنا موجود،

أنا لا أفكر

تتقاذفني الأمواج،

الجزر والمد

فما رهن الوجود؟

وما رهن الحياة؟

– في كـــلّ مـــرة أنظـــر إلى عينيـــكِ، أرى الحلـــمَ.. والحلـــمُ جميـــل.
– في كـــلّ مـــرة أنظـــر إليـــكَ يخيّـــل لي أنّـــك درويـــش، أو مجـــذوب!
– تلفظي سعدًا!

– .....

الحائرة.. بيدها المرتعشة البارزة عروقها، بهتت من فرط التفكير.. العينان جاحظتان متوجستان، تعتدل في هيئتها ضاغطة على قهوتها العصرية الثانية تعشمًا في كبح حران فوضى رأسها.

– تستيقظ الأحلام ليلًا؛ لتموتَ في وضح النهار.. للأحلام روعتها وشقاؤها، ليلًا أحلم بإسكندريتي المختلفة عن إسكندريتهم، يخشون نور الصبح، ويغطون وجوههم ككروبي تابوت العهد، إلّا أن أجنحة بني آدم تختلف كثيرًا عن أجنحة الملائكة، يغطون العينين؛ لشيئين لا ثالث لهما، لجمال لا يطيقونه، أو لقبح لا يواجهونه، ولا بين بين، في إسكندرية قبحهم جميلي وقبحي جميلُهم.. يا للبؤس!

تباغتني الأحلام، ويقتات الحلم على ذكراه، وكُل لا يكتمل.. هيباتيا حلمي الأول، تُقتَل على مرأى ومسمع الجميع.. البابا والحاكم.

خلعوا قلبي وأعطوه للسلطان، السيد أصبح عبدًا للمماليك.. هيروديا لا زالت ترقص رقصتها المجنونة، وخطاب من المقوقس أبيع فيه بلاطًا بحريًّا، وبلاط المعبد والعابد والمعبود، إسكندرية لا تعرف أبجديات العالم ولا

أبجديات العالم تستطيع وصفها، لها لغتها وأبجديتها، خلدت يوم أن خرجت من رحم الأرض الأول.

لا خيار أو إرادة، ولا سيناريو تتحكم به، لهذا روعة أفلامي، الفانتازيا، شارع فؤاد، وأفكارك أنت عن إسكندريات أخرى.

– همنـــــــــــــــــــــا واحـــــــــــــــــــــد!

– نفس الهم؟!

– بالطبع! فأنا بعت بلاط المصنع، واشتريت الحلم والعدم، في كلّ مرة أنظر عمـود سـواريك.. أبـني أمامـه مئـاتٍ مـن ناطحـات السـحاب، وتنطحـني عمارتـك اليونانيـة والرومانيـة وآلهتـك الإغريقيـة، لي أسـاطير وآلهـة ولكـن.. لعمري لم أهزم آلهتك، علمتها فنون القتل والهجر والنشوى، وفي كل مرة تنهزم وتسقط صريعة عذوبة ملائكتك العارية.. يا للوهن!

نشترك في أشياء كثيرة، الضعف والجاذبية والجنون وقلة الحيلة، إلا أننا نختلف في جبروت الآلهة، نتماس ولا نتلاقى، نتقابل ولا نتقاطع.. حبيبان لا يعترفـان بحبهمـا، كـلّ منهمـا للآخـر، الليمـون والنعنـع نعشـرهما في حبـكِ، ولا أجـــــد منـــــك ســـــوى التجاهــــل.. قســــوتك تــــؤذيني.

– لأنـــــــــــــك درويـــــــــــــش، أو مجـــــــــــــذوب.

– لا يحبكِ إلّا الدراويش.. بل لأنني – مثلك – لم أحسم أي صراع، الباب

دائمًا موارب، لا مفتوح، لا مغلق.. أنطونيوس لم يهزم أوكتافيوس في معركتي ولا أنهزم، وكفافيس لم ينهِ قصائده بعد.. وأنا لم يعدْ باستطاعتي أن أكملَ اللحن، فخرجت سيمفونيتي ناقصة.. الجمال حينما لا يكتمل يكون أقرب للقبح، والمعزوفة حالما انقطعت صارت أقربَ للنشاز.. ومكان السلوى يحل الارتباك، أما خوفي على معزوفتي يقطع الأوتار.. يغلق الطرق.. ويغرق المدن القديمة.. الأثر يقبع تحت الأرض؛ لأنّه اندثر تحت تأثير الزمن.. وكذلك درويشي.

حتّى ما أقوله الآن.. لن ينتهي..

***

إسكندريتي تظهر وتختفي،

أنتظرها دائمًا، ولن أرحل حتى نصير بحرًا واحدًا،

على الرغم من عناد الريح ولوياثان ودموية المشهد والزحام.

"يحلف كل نهار أن يبدأ حياة أفضل، لكن، حينما يحل الليل بتعريضاته بها، بمصالحاته، بوعوده، ولكن حينما يحل الليل بقدرته على الإقناع،

يرتـــــــد ولهـــــــان، إلى الاســـــــتمتاع القاتـــــــل ذاتـــــــه، باللحم البشري الذي يشتهي ويهوى"

قصيدة الإيمان لقسطنطين كفافيس، شاعر سكندري.

البؤساء في الأرض

تأثير البشاميل

في غرفة العيادة النفسية:

– ما الشيء الذي يحبّه ابنكِ، ويجعله يتمسك بالحياة؟

– سؤال صعب.. الأشياء التي يحبها كثيرة، ولكن لا أعرف ما يجعله يتمسك بالحياة.

– أيّ شيء يحبه يجعله يتمسك بالحياة.. اذكري لي شيئًا يحبه!

– لا أعرف!.. يحب أباه لكنه مات، ربما التلفزيون، النوم، وربما البشاميل!

– إذاً أصنعي له البشاميل.. كل يوم!

– المصائب لا تأتي فُرادى، لم يكذب أبوه مطلقًا.

من دون تجديد أنتهى عقده في الشركة مع نهاية عقده الثالث، تركته حبيبته، حسبته مجنوناً، الحقيقة.. "أمل" ليست الوحيدة التي اعتقدت ذلك، لهذا لم يلومها كثيراً برغم من أنها الوحيدة التي أخبرها بقصة الدعوة، كما أنّ

طالعه لم يكن حسن الحظ في أبراج جريدة اليوم، كل هذا كان صبيحة اليوم الذي عرف فيه نتيجة التحاليل وأنّه مُصاب بخلل بأُذُنِه الوسطى تجعله يفقد الوعي مرتين على الأقل يوميًا.

وشعر بأنّ الكون يلفظه، كيونس بلا حوتٍ، على شاطئ جزيرة العبث النائية، بلا طعام أو مأوى أو رائحة، ولما رأى ذلك وجد أنْ يلفُظه هو الآخر على شاطئ الدعوة، وتذكّر والده مرة وهو كعهده يحدثه بأمثاله قائلًا: "الفقهي يسعد لو مات له اتنين!"، ولما سأله عن معنى المثل قال إنّ القارئ يسعد لو مات اثنين في نفس اليوم، وقَرَأَ في مأتمين! أي.. أنه على الرغم من الغمة يأتي الخير من حيث لا تحتسب – هكذا تابع أبوه في التفسير، ولذلك شعر أنّ كلّ ما خسره وراءه مكسب كبير أو هاتف يدعوه لبدء الدعوة.

اليوم، استيقظ متأخرًا نوعًا ما، ذاهبًا إلى مدير العمليات لإنهاء إجراءات التأمين والاستقالة، وفي طريق خروجه من باب الورشة قابل الحاج حسين.. ربّت على كَتِفه قائِلًا: "أنت تحمد الله لإنك خرجت من الورشة، فالورشة مكان تصفية حسابات؛ الفنّيون دائمًا يعملون ما بوسعهم، والشركة تطالبهم بالمزيد، وتتّهمهم بالتكاسل دائمًا، ونسوا أنّ الفنيين لهم طاقة، فهم بشر في الأول والآخر! أما الفنيون فيأكلون بعضهم بعضًا؛ ليظهروا للإدارة الأكفأ حتى لو على حساب العيش والملح، الورشة دنيا صغيرة!"، وتركه وشدّ ما أثار حنقه نبرة النفاق، التي كان يتكلم بها، فالحاج "حسين" لم يحبه يومًا وكان أول

من سعى لطرده، بعدما كثرت نوبات غيبوبته في أثناء العمل، لذا خرج تعيسًا، ولكن بقدر تعاسته كان عازماً على نشر رسالة الحب والخير التي طالما دعاه الله ليكون رسولها الجديد.

ورسولنا في هذه القصة الذي لم أفكر في اسمه قبل تلك الكلمات ولكن، ربما.. إن شئت تسميته أسميه باسم ليس لذات صفاته، فالصفة ليست من سمات الاسم، فربما كان كريمُ بخيلًا أو يوسف قبيحًا، لكن.. لندعوه وحيدًا وأمه كريمة التي لم تعرف يوماً شيئاً غير الطبخ والحب، ودعنا نبتدع اسم كريمة لذات الصفة.

رجع وحيد إلى البيت وشعر في قرارة نفسه أنه هو اليوم الذي سيعلن فيه الله دعوته ويعطيه ختم النبوة.

دخل غرفته، واعتزم أن يُفرّغ في جوفه أقراص الدواء كلها التي سيرحل بها إلى المجهول، ويعود نبياً.

نعم لابد أن يموت عملاً بوصية أبيه التي لم يفهمها وقتها؛ "الأشياء النبيلة لكي تعيش يجب أن تموت أولًا". قالها بعدما حكى له أنه لم يتزوج من أحبها في شبابه، وتبع بعدها بأن الزواج التقليدي يعيش أكثر، ويحافظ على مصير الأطفال. فلكي يعيش الأطفال يجب أن يموت الحب، كانت تلك

الحكمة سلواه في قصته مع أمل، وردد هكذا: لكي تعيش الرسالة يجب أن تموت أمل!

لأبيه فلسفته في الحياة، ووحيد لا يملك إلا أن يصدقها، عموماً هو لم تظهر عليه أية إمارات ذكاء أو فهم لمعظم الأشياء، فكان يصدق فقط! ولم يشعر مرة بالخذلان، مخبرًا نفسه دائمًا أن: "الأنبياء لا يشعرون بالخذلان.. أبداً".

ومع غروب الشمس كان ألم الجوع يعتصر قاع معدته وفكّر، هل يمكنه أن يأكل وهو نبيًا أم سيعطيه الله مع النبوة مقدرة علي البقاء بدون أكل! وتذكّر أنّ المصريين القدماء يضعون مع الميت طعامًا ليأكل في البعث، اتجه بفكره أنّ المصريين القدماء كانوا تمهيداً لنبوة موسى، أول من وحّدوا، وأول من وضعوا طعامًا مع الموتى.

"تعالَ، أنا عملت لك مكرونة بالبشاميل اللّي بتحبها"

صدر صوت من حنجرة أُمّه العجوز عبر حبال صوتية مُنهَكة، وكان أمامه خياران، الرحيل جائعًا أو أن يُخرِس صوت معدته، ويُفكّر في الرحيل بعدها، واختار الحل الثاني.

وفي أثناء أكله دخلت أمه لتنظيف غرفته، وجدت عقار الموت! لكن كريمة اعتادت الأمر، فكل يوم بعد ذهابه لعمله القديم بغرض تقديم

الاستقالة للمرة المليون، وحديثه عن أمل التي تركته منذ سنوات والتحاليل وشهادات الأطباء لسنوات فائتة، يدخل إلى غرفته ويحاول الرحيل عن عالمه التعس، وهو يتمتم بصلوات تخصّ النبوة.

أما كريمة فكانت صبورة جدًا ولو كان للمرء اسمين لكنا اسميناها كريمة وصبورة أو كريمة ورجاء، فكانت وسيلتها الوحيدة لتقديم الحب؛ هو عمل البشاميل وكانت تبكي لحال وحيد، وتتوسّل له ولسان حالها يقول: "لو كان هناك ما هو أبعد من البشاميل لصنعته لك" ولكن في قصتنا هذه، للأسف، لا يوجد ما هو أبعد من البشاميل!

وبعدما أكل وحيد غلبه النعاس، فكّر لو أنه ينام للأبد، وصلى بدموع أن يعفيه الله من النبوة، فالمسئولية ثقيلة، ورسالة الحب وسط هذا القدر من النفاق لن تعيش طويلًا.. ولكن كما يشاء الله سينصاع، وأظلم غرفته ولم يجد شريط الموت، سأل أمه.. أنكرت، تلك المرة الألف التي يرفض الله تسليمه الدعوة، اعتصره الألم ومزيج من الرفض والارتياح، صعد إلى سريره؛ لينام متألماً يومًا آخر لا يكون فيه بشاميل، ويكون فيه دواء للموت ودعوة للحب، وتخيّل كوة في السقف تتعامد فيه أشعة الشمس على وجهه، ومرة أخرى أدرك أن المصريين القدماء كانوا تمهيدًا للنبوة.. تبعث الشمس كلّ يوم، وتبعث الروح كل حياةٍ، وقال: "لو أنّ الحياة بعد الموت نومٌ أبديٌّ سيكون

هو النعيم بذاته" استعاذ بالله من الشيطان مرات ونام، وهو يفكر.. كيف يموت الحب ليعيش الأطفال؟!

القدر

كانت سيارة على وشك أن تدهسه، إلّا أنها توقفت في اللحظات الأخيرة، صوت ورائحة احتكاك العجلات بالأرض زاده ارتباكًا، وظلّ واقفًا في منتصف الطريق السريع لحظات قليلة.. حسبها دهرًا، إلّا أن أسرع سائق تاكسي، وأمسك بيديه ليمر به للجهة المقابلة، وحينما نصحه السائق، بألّا يسير بمفرده مرة أخرى، سمعه يتمتم بكلمات متفرقة عن القدر والتحدي، ولما لم يفهم كلمة من العجوز، انقطع الصمت وتوتر المشهد بدعوة من العجوز الضرير قائلًا: "روح يا بني ربنا يبعد عنك أولاد الحرام"

كان حانوتيًّا، وكثيرًا ما تحمّل الإهانات من سكان حيه، البعض كف التعامل معه كونه فأل شؤم، وآخرون نعتوه بأنه رجل فقر، وكانت صحته سابقًا تساعده على أداء مهمات عمله المقتصرة على المجهود البدنيّ فقط، كحمل التوابيت وحفر الترب ودفن الموتى، وربما تلاوة القليل مما حفظه من القرآن، إنْ تغيّب إمام أو شيخ مقابل جنيهات زيادة على إكراميته، إلّا أنّه ضعف بتأثير السن، وأصابه الوهن والعجز، فعمل سفرجيًا للمآتم وقاعات العزاء لسنين، ولما أصابه الضررُ؛ لم يستطع أن يباشر أي عمل؛ فاقتصر على الاستعطاء يوميًا في المدافن أو تلاوة ما تيسر له من الدعوات والابتهالات في حالة غياب رجل دين أو قارئ.

ولأن الحانوتية منبوذون من عامة الناس؛ بسبب أن عملهم ولقمة عيشهم قائمة على مصائب وبلايا الآخرين، فمعروف أن الحانوتي يندب حظه لو مرّ يوم أو أكثر دون ميت آخر أو حالة وفاة أخرى، وكونهم منبوذين بات لهم مجتمعهم الخاص، فذاك مطعم فرج للفلافل وكل زبائنه يوميًا من الحانوتية، وتلك قهوة الصبر لجماعة الحانوتية.

والحانوتية، رغم كراهية الناس لهم، لا يبالون، فهم – نوعًا ما – تجردوا من مشاعرهم الطبيعية لهول ما يرونه يوميًا، فالموت رزق، والحريق موسم، والحوادث اليومية منفعة وفيرة من عند الله، ولتجردهم من مشاعرهم كانوا لا يهتمون بموتى العائلات الفقيرة على عكس العائلات الكريمة؛ إذ كانوا يدفنون الفقراء بإهمال متعللون دائمًا بأن (الشغل كتير)، كما أنهم كانوا أشد عداوة للصيادين المجتمعين بقهوة الصيادين، التي تبعد أمتارًا عن قهوتهم، والحق أنه في ليالي فائتة شهدت المساحة بينهم معارك دامية انتهت بتأمين مشدد من طرف الحكومة بضعة أيام، إلّا أنْ ينتهي الغضب، وتعود الأمور لوتيرتها مرة أخرى.

ولكن شد ما أصاب العجوز هو تفكيره الدائم في القدر، رزقه اليوميّ يعتمد على القدر، الأمر مختلف نوعًا ما عن التجارة والهندسة، وربما الطب، القدر يتدخل في كل الوظائف، لكن ليس بهذه الصورة الفجة في عمله، يقولون: إنّ لكلّ مجتهد نصيبًا، ولكن أي اجتهاد في عملية دفن الموتى يمكن

أن يزيد معه نصيبه، في أيامه السابقة كان يرى ذلك بوضوح، كان مهيته لا يُعتمد عليها في حياة يسيرة نسبيًا دون البقشيش، وكان قد باشر عملًا إحصائيًا بسيطًا عن متوسط عدد الموتى يوميًا وشهريًا لإحصاء متوسط البقشيش الشهري، ولكن – والشهادة لله – لم تتفق أبدًا إحصائياته مع الواقع مقارنة مع المصائب والبلايا، التي قد تحدث يوميًا، التي قد لا تحدث أبدًا، ولما ناقش أفكاره مع أصدقائه في مقهى الحانوتية أجابه أحدهم: "يا عمي.. لا تحسبها، كله على الله!"، وسكت، ولكن أفكاره لم تسكت، علامَ يعتمد القدر في انتقائه مستحقي الرزق، ويذكر يوم تندروا بقصة "عطلة عبد السميع المتمارض"، يوم كان (الشغل على ودنه) كما قالوا، وكان عدد الميتين قياسياً في هذا اليوم، حتى أن كل حانوتي رجع بيته ببقشيش شهر، طبعاً لأن كل المتوفيين من عائلة كريمة، وبينما كانوا يتندرون بقصة "عبد السميع المتمارض" كان الضرير يضرب كفًا على كف، سائلًا نفسه عن القدر الذي اصطفى الكثيرين من الحانوتية بالرزق الوفير هو من ابتلي عائلة من أكبر عائلات المنطقة بموت أكثر من نصف أفرادها!

وكانت أفكار تدور في رأسه لا تتركه إلا منهكاً، لِما ندعوه قدرًا، وما ملامح القدر! أهو انعكاس لرحمة الله وعدله المطلقين؟ أم هو في انتقائه عشوائياً، وحين لا يكون انسجام وصلات لا نهائية في فضاء الكون الرحب؟! ذاك مات لأنّ معدلات الدهون المتراكمة في شرايينه؛ كانت أكثر

مما ينبغي وربما لو لم يأكل في ذلك اليوم هذا الكم من السمين والمشكل لما وافته المنية! وذاك لو كان والده لم يخرج للشرفة قبل صلاة الفجر؛ ليدخن سيجارة تاركًا باب الشرفة مفتوحًا لما اعتلّت جيوبه الأنفية، ولما كان مشوشًا في أثناء عبوره الطريق الرئيس؛ لتصدمه سيارة أجرة، حيث أنّ سائقها التعس أخذ قرار طلاق زوجه للتو.

اليوم، ككل يوم، يسير العجوز الضرير عابرًا الطريق السريع في صراع مع القدر في معركة لا نهائية، متوكئًا على عصا صدئة، مرتديًا رداء من الصوف رغم الموجة الحارة في شهر فبراير، ويتساءل: "هل يختاره القدر ليوم إضافيّ من حياته، أم سيكون رزقًا يذهب لحانوتيٍّ منتظراً ميتًا آخر!"، وكانت سيارة على وشك أن تدهسه، إلّا أنها توقّفت في اللحظات الأخيرة، ولما انتهى صراعه اليوميّ مع القدر، لم يكنْ يعرف حتى إن كان قد كسب المعركة أو خسرها.

وقرية الدشت

صارت مراسم الاحتفال على أكمل وجه وعلى سجيتها، كما لو أن شيئًا لم يحدث رغم الجرائم، التي اقُترفت في الآونة الأخيرة.. يأتي شيوخ القرية وحريمهم وأطفالهم لابسي أزهى ثيابهم في طريقهم لمنزل عبد التواب، يحمل كلّ منهم ما استطاع من مال وطعام وفضيات يترجون دعوة أو اثنتين من عبد التواب.. في هذا اليوم، تكون السماء مفتوحة لفم عبد التواب فقط، وتتناسب عدد الدعوات مع قرابين الأهالي، ويفوز الذهب بأكثر عدد من الدعوات عادة.

أما عن الجرائم التي سبقت الاحتفال الذي عادة ما يكون السابع من سبتمبر سنوياً- ذكرى عودة عبد التواب من الموت حيًا – فهي كما شيع من أهالي القرية أن لعنة أصابت ميكانيكية البلد كلّها، فأي ميكانيكي تأخذه النداهة في ليلة ما إلى ترعة المحافظة، ويتكلم بكلام كثير من الكفر البين أكثره عن الأنبياء والميكانيكية، إلى أن يقتله الجان ويجدوه صباحًا جثة هامدة في مياه ترعة المحافظة.

في السنة الثالثة لرجوع عبد التواب حيًا من الموت، تفوّه أحد الميكانيكية بأن عبد التواب "ميكانيكي وابن كار"، مما أثار حفيظة أهل القرية، وأنزلوا به ضربًا حتى أصابه العجز ،ويقال: إنه مات بسبب الحزن والكآبة، أمّا أهل

القرية فرأوه مستحقًا جزاءه، وشرع مشايخ القرية في قتل من يتفوه بكلمة أو بأخرى عن ولي الله، وأفتوا بأن كلمة ميكانيكي سبة، ومن الكبائر، واستدعوا الحكومة لغلق كل ورش الميكانيكية.

أذكر آخر مرة رأيت فيها أسطى السيد أول ضحية لعنة الميكانيكية، سألته في تلك الليلة عن كلام الكفر، الذي تفوه به بأن عبد التواب ليس بولي الله، هذا الكلام الذي أثار غيرة المؤمنين المحافظين من أهل القرية، وحكى لي حزيناً: "في إحدى أيام الضباب بأمشير، وأثناء عودة عبد التواب لقريته كعادته كل عطلة أسبوعية مستقلًا قطار الدرجة الثالثة المتهالك كواقعه التعس، تصادف وجود نشال تعس الحظ هو الآخر بنفس القافلة، سرق اللص ما بحوزة عبد التواب من محفظة شخصية بجيبه الخلفي، وشرع الهرب من القطار المتحرك إلا إنه اصطدم برصيف القطار فوقع فريسة شهية لعجلات القطار الجائع، ووسط ذهول الناس وعويل النسوة، لملمت الحكومة جثة اللص التي لم يتبقَ منها سوى وجه مشوَّه ومحفظة باليه – هذا ما قرأته في خبر من جريدة الحكومة، التي احتفظ بها أسطى السيد حتى اليوم – ولما أرسلت الحكومة خبر الفقيد لأسرة عبد التواب، شرعوا في أخذ العزاء وإقامة الشوادر لحين دخول عبد التواب عليهم حيًا، وهو لا يعي شيئًا مما حدث، وسط ذهول ودهشة وعدم استيعاب لأي حرف يقال له!

اليوم، يتجه كل أهالي القرية للتبرك بعبد التواب، حاملين كل ما استطاعوا جمعه، لم تتحول حياة أهالي القرية بسبب دعواته، ولكن على الأقل لم تتغير للأسوأ، وهل هناك حال أسوأ؟! هم في فقر مدقع، جهل بيِّنْ، يعيشون بين الحشرات، وتفوح رائحة القمامة في أرجاء القرية، التي بسببها انتشرت الأمراض، إلّا أنّ بقعة عبد التواب كان الأنظف على الإطلاق، لا نعرف بسبب بركته عبد أو بسبب مجهودات المحافظة وقسم المركز في التأمين.

أذكر، أنه في تلك القصاصة الصفراء، المأخوذة من صفحة الحوادث لجريدة قديمة، كان اسم عبد التواب، على غير صورته، وكان الأسطى السيد يعرف السر، الذي طالما أثقل كاهله، ومن فينا وفي أهل القرية كلها يجرؤ أن يسأل ولي الله عن بطاقة هويته؟! كان السبب الرئيسي لمقتل كل الميكانيكية هو امتناعه الظهور السنة الفائتة بسبب ما تردد إلى مسامعه من إشاعات حول كونه ميكانيكي محتال – أعوذ بالله – وذاع بين شيوخ القرية أنه في يوم من الأيام سيمتنع عن الظهور للأبد بسبب ذنوب أهل القرية ومعاصيهم.

في الليلة الأخيرة، لأسطى السيد، قال باكيًا بهيستريا: "لا أجرؤ على النظر نحو الأعلى، لا أعرف شيئًا، عبد التواب ليس وليًا، لكنني لا أعي الحقيقة"، وبعد هذه الليلة تتابعت الحوادث إلى أن انتهى الميكانيكية أو الكفرة كلهم، كما يدعونهم أهل القرية، ولما احتفلوا بموت الكفرة، قال

جدي في ذلك اليوم منازعًا المرض في المعركة الأخيرة لا يملك حق الدواء: "الحمد لله، اليوم خرج الشيطان من القرية".. ومات راضيًا.

الغريبة

لا أود رسم الوجه.. فقط عينيها..

كعيني ميدوسا، والتحديق فيهما لا يحولك إلى حجر ساكن، على العكس تتفجر في داخلك مكنونات الحياة، كثقب أسود، تأخذك إلى المجهول، للا مكان، للا وقت، للعدم بذاته، لغابات من أشجار البسكويت، لشلالات من ماء الورد، لميادين المصارعات، للألم، للصداع المتشبث بمؤخرة رأسك، للحنين، وآه.. من الحنين.

بورتريه رخيص، أرسمه في دقائق معدودة بحكم حركات فرشاتي القوية المحترفة، إلّا أني منذ حاولت رسم عينيها، وأنا أفشل يوميًا، ساءت أحوالي، تدهورت صحتي، ذابت أطرافي، وصارت يدي المرتعشة شاهدة وحيدة على مأساتي، فبالنظر في عينيها، تتوقف عقارب الساعة، وتبدأ عقارب دواماتي العقلية تباغت روحي.. الكمال، الجمال، الخيال المطلق، كلّ جميل وساحر كان بعينيها، لطالما وددت أن أعيش الكمال، كما أعيشه يوميًا وأنا أحدّق في عينيها.

العينان..

أشتاق لجمال هذا مقداره، عيناها الناعستان فيهما القدر والحرب والسلام والرقة واليأس والضعف والقوة والتأثير واللامبالاة والنوم وموشحات

أندلسية، وتعويذات لساحرات أغرقهن أساقفة القرون الوسطى، وألحان آشورية لملك مجهول ومائدة بطرس المحمّلة بأشهى مأكولات الدنيا.

عينان.. تأخذني إلى كمال أبحث عنه ولا أجده، إلى حنين أتعبني استرجاعه، وتساءلتُ: "هل تجمع جمال الكون بعينيها؟!"

اليد المرتعشة لا تستطيع إمساك الفرشاة، كقلبي الهش الذي لا يستطيع إمساك الحقائق المبعثرة في أرجاء غرفتي العقلية على نحو رهيب، أنا أميز جمالًا حقيقيًا عن آخر مزيفًا، طبيبي النفسيّ أخبرني أنّه لا يوجد جمال حقيقيّ، نظرتنا المحدودة بزاوية 160 درجة لقطاع كروي، لا يعني – بالضرورة – أننا ننظر نحو الكرة بالكامل، فالجمال الحقيقي، الكمال، يختبئ فيه جزء قبيح لا نراه، "لا يوجد جمال في دنيانا" هكذا أخبرني طبيبي النفسيّ، الذي يحتاج لطبيب نفسيّ هو الآخر.

إلّا تلك العينان، فيهما الجمال بجميع زوايا الكرة، أنا أؤمن بذلك، رغم أني لا أعرف حتى لونهما!

هل هو اللون الأحمر؟ لا، فالأحمر يأخذني لغرفات مغلقة بلا كوة تهوية، ليس فيروزيًّا، فالفيروزيّ محدود كآماد البحر، ليس ليلكيًّا، فالليلكي له ذكراه، لون عينيها يأخذك إلى أماكن بلا أبواب لا نهائية، لا ذكريات خلفها.. ليس أصفر كشمس مهيبة غازية بلا مضمون.

"كل ده كان ليه.. لما شفت عنيه!"

في تؤدة، تضع الفرشاة جانبًا، وتغلق الراديو عن إذاعة الأغاني، ما زالت اللوحة بيضاء صماء صمم المومياوات، وودعت الغريبة ذات العيون الناعسة الحالمة بلون كامل، فالغريبة، تأتي وترحل كل يوم، تترك المقعد خاليًا في أثناء وجودها، ولحظة رحيلها، كانت كثقب أسود، العدم ذاته.

الصياد

يوماً ما حكي لي شيخ حكيمٌ : ذات مرة في ساعات النهار الحارقة بأغسطس، مكث صياد ساعات على الشاطئ راجيًا بعضًا من الرزق الوفير، وكانت صنارته عالقة في المياه طوال النهار، وكلما علقت بها سمكة وضعها في صندوقه جانبًا.. غيَّرَ الصياد الطعم مرات عديدة، وحينما هم بالرحيل آخر النهار، وجد أن كل ما اصطاده قد تعفن من فرط الحرارة الشديدة، لعن حظه، ورمى كل ما اصطاده مرة أخرى في مياه البحر.

أسند الشيخ الحكيم رأسه على عصاه، وغطّ في النوم، قبل أن أسأله عن نهاية القصة.. فاعتبرت أنها قد انتهت هذه النهاية الحزينة، ونقلتها لأحد أصدقائي ذات أمسية رتيبة في إحدى ليالي فبراير، ونحن جالسين على مقاعد متهالكة نرتعش بردًا ولا مصدر للدفء إلّا أغنية صادرة من مذياع فوق منصة الشاي، وأنفاس رواد القهوة في تلك الساعة الكئيبة، وبعض الشباب العائدين من دروس الثانوية يلعبون النرد، وآخرون يتفقون مع سمسار على ثمن أرض بحرية، وثمة أفراد وحيدون يشكون همومهم للشيشة وأبصارهم عبرت الجدران والشارع إلى مالا نهاية.

حين نقلت قصة الصياد لصديقي، قال وهو يحك كفيه بين فخذيه أملًا في دفء بلا جدوى: "هؤلاء هم المظلومون في الأرض، يقولون من خاف

سلم، وكم من مرة خفنا ولم نسلم، نحن نسير بجوار الحائط دائمًا، وتسقط علينا ماء الشتاء البارد من مزاريب البيوت القديمة، بينما اللاهون في وسط الشارع لا يتلطخون أو يتعثرون، أتدري لماذا؟! لأنهم يسيرون بعرباتهم الفارهة، نحن المجتهدين والمتعبين، ونحن من نجر الساقية، نحن من نصطاد طول النهار ولا نأخذ شيئًا، قل لي ما الحرب؟!"

كان اندفاعه في عرض أفكاره واضحًا، وأرجعت سبب هذا الاندفاع الذي يوحي بغضبه والتوق إلى العنف إلى مشاكله التي أعرف عنها قدرًا ليس بقليل، ولكنني أمعنت في سؤاله، وقلت بلهجة فلسفية ضاحكًا: "اسألني ما الحب! أجيبك عن الحياة، اسألني عن الحرب، فلا أملكن أي إجابة!"

رشف من قدح الشاي آملًا في مزيد من الدفء لكن هباءً، واستطرد كأنه لم يعير عبارتي السابقة أي اهتمام قائلًا: "أعطيك أنا جوابًا، الحرب هي الحياة، نحن نولد في حرب ولا سبيل للانتصار، أنت تصارع بمعالق وسكاكين في وجه من يحارب بدبابات وهيباتشي، لن ننتصر أبدًا، فقط نصارع لأجل المزيد من سنوات بائسة، نحن الصيادون والدنيا الشمس، أتريد أن تنتصر؟! .. تخلى عن كل مبادئك، هل تستطيع؟!"

قلت: "المبادئ نسبية إن تمسكت بها ظن آخرون إني تخليت عنها والعكس!"

وأخذنا الوقت في حوار فلسفيّ حول المبادئ، وبينما يعلق هو على هجمة فريق الأرسنال كنت سابحًا في أفكاري إلى أفق بعيد عن كلامه عن الحرب، وبينما كان يتحدث عن الحرب والحياة، كنت أستعرض – بفطرتي العاطفية نوعًا ما – أطفال سوريا في صورة وابن الأمير الإنجليزي في صورة أخرى، والتناقض كاد يخنقني، وعندما صارحته بهواجسي بعد هجمة الأرسنال قال متجهمًا: "خطة خراء".

المرأةُ التي التهمت نفسها

سعيدة، بالكاد مرت أيام منذ أن تخطت خريفها الحادي والستين، حياتها كانت روتينية جدًا قبل أن يتوفى زوجها منذ سنة، وروتينية أكثر بعد أن سافر أولادها إلى جهات مختلفة.. صارت وحيدة وتسليتها اليومية تكمن في شراء الخضار وجريدة الصباح، ثم العودة لتنفرد بالتلفزيون الكبير القديم وهاتفها لمتابعة جروبات مختلفة تضم العديد ممن هن في سنها.
إلا أن الحياة لا تسير بذلك الشكل الروتيني إلى الأبد.

بدأ الأمر منذ وفاة زوجها، في تلك الليلة سمعت ضحكات في الشقة المقابلة لشقتها، ظنتها لعائلة جديدة استأجرت الشقة المهجورة منذ أيام أو أكثر، لم تكترث في بداية الأمر، لكنها في نزولها وصعودها كانت تسمع الضحكات مختلفة لأكثر من شخص، من خلال الضحكات تبين لها وجود أطفال وأمهم وزوجها، انتظرت أيام حتى تعرف من هم هؤلاء المستأجرون؟ أو على الأقل حين يبادلونها واجب العزاء؛ إذ لأكثر من أسبوع كان الناس ملتحفي السواد صعودًا ونزولًا على الدرج ناهيك عن عزاء شقق العمارة كلها!، باستثناء واحد منهم لم يأتِ.

استاءت لفترة، ثم تجاهلت لأخرى، ثم حاولت أن تتجاوز ثقل تجاهل الجيران

في الشقة، لكن الضحكات المتتالية سببت لها ضيق وغيظ، وشعرت أنهم يتعمدون مضايقتها، رفضت أن تخبر البواب لئلا يفهم أن استياءها دافعه الحقد، وهي النرجسية الطبع تكره ذلك، وكانت تحاول إغاظتهم في مرورها أمام شقتهم كل يوم بعد شراء حاجاتها، قائلةً بصوت عالٍ: "يا بختك يالي عايش وحيد، يا خيبتك ياللي بتضحك وسعيد."

حاولت أن تدفن كآبتها بالنوم الكثير، إلا أنه كان سبب زيادته، تابعت المسرحيات الهزلية، انغمست في المطبخ بلا جدوى للنسيان.. متى تصاعدت تلك الضحكات كان ينقبض قلبها، وتهمد حيويتها وتجلس لساعات هائمة في الـــــــــــــلا شـــــــــــــــيء.

قرأت سعيدة منشورات الفيس بوك عن الطاقة الإيجابية ومسبباتها وتأثيرها، فنثرت الملح في دواخل الشقة والغرف، وعكفت على التنظيف انصياعًا لوسواس قهري بترتيب وتطهير وتعطير الأشياء، فتحت منفذًا آخر لدخول أشعة الشمس، واشترت مذياعًا جديدًا، غيرت المفارش لألوان ذات حيوية أكثر، كل هذا أبقاها متماسكة لفترة، بعدها ومع حلول الظلام وهدوء الشارع استبدلت النوم الكثير باللا نوم، فصاحبها الأرق، وعنفته أول الأمر بالأدوية، ثم حاولت ترويضه، فغيرت وضعية النوم، وأوقاته، وأماكنه،

فافترشت الأرض مرة، والأريكة مرات، وكرسي التراس أيام، لكن صوت الضحكات يتزايد ويتردد بوتيرة أسرع، وفي كل مرة تستيقظ فزعًا، وعابت أن تلوم السعداء على ضحكاتهم، وأخيرًا رأت سعيدة أنّ كلّ سيّئ جيد جدًا! هل للطاقة السلبية مجال، وهل لها تأثيرٌ في حيز مجالها كالمجال المغناطيسي مثلاً؟

أغلقت كل النوافذ فغابت الشمس شهورًا، وأزالت الملح، وزرعت الصبار، وتعمدت بعثرة الأشياء على غير تنظيم، فاحت رائحة الكمكمة فارتاحت لذلك!، أغلقت التلفاز، ونثرت حبيبات الفحم في كل مكان، تخليت عن كل الطاقة السلبية، التي انهمكت في توليدها مشكّلةً مجالًا أشبه بالمجال المغناطيسي يخترق الجدران، وانتظرت عبثًا أن يحزن أصحاب الضحكات فلا يضحكون!، ولكن كلما حزنت السيدة اشتدت الضحكات المتولدة حتى رافقتها الأفكار الإجرامية مرات، في أن تحرق شقتهم أو تقتل أحدهم يومًا. رافقها الهم والغم، فغابت عن الشارع والسوق، وأرسلت البواب بالطلبات، وهزلت وذابت أطرافها، وفكرت كم تشتاق لضحكة ولم تجدها، المسرحيات وكاريكاتير الجريدة لم يساعدوا، واعتادت الكآبة في انتظار الموت متعشمة أن يقايض روحها بضحكة أخيرة، حتى أنها كلما وضعت يديها على أذنيها

وقت الضحكات، سمعت الضحكات في رأسها، يستبد بها الصداع والألم فتسقط مغشيا عليها وحيدة حتى كادت أن تموت ذات مرة.

وذات يوم، وعلى غير العادة، سمعت جلبة أمام شقتها، وصوت البواب مع أناس غرباء، خرجت مستفهمة، عرّف البواب بسعيدة وبرب الأسرة الجديدة: – "الأستاذة سعيدة، جارتكم، الأستاذ مستأجر جديد للشق" ارتسمت ابتسامة لأول مرة منذ سنة، وشعرت بالغمة تغادر صدرها وقالت بوهن:

- " الحمد لله، الجيران اللي قبلك كانوا متعبين شوية"
- "لكن الشقة بقالها سنين متسكنتش يا مدام"!

وأخبرها البواب أيضاً أن الشقة لا تصلح للسكن من دون أعمال محارة وسباكة التي لا غنى عنها، وفتح الباب لترى أكوام التراب في كل حدب، هنا بكت سعيدة ثم ضحكت فجأة، واستمرت بالضحك كثيرًا لأول مرة منذ فترة كبيرة، كانت تضحك بهيستريا وهي تقول: "يا بختك ياللي بتضحك وسعيد، يا خيبتك ياللي عايش عنيد"

بائع الحلوى

متجر لبيع الحلوى، ولكنّها ليست كأي حلوى، كانت حلوى التفاؤل، من يأكلها يتفاءل للتو، ويعيش حياته بإصرار وطموح وعزيمة ليس لهم مثيل، فكانت تغيّر الفكر والقلب معًا لفترة معينة، وتختلف درجة التفاؤل والطموح باختلاف درجة السكريات في الحلوى، فتلك حلوى الأفكار الإيجابية، وهناك حلوى الصبر، وهي أقلهم حلاوة، وحلوى التغيير والعمل.. وأنواع أخرى كثيرة كان يقوم بصنعها صاحب المتجر.

لكن الأكثر عجبًا هو بائع التفاؤل، العم "جمال" الطيب بابتسامته الساحرة، وتجاعيده التي لم تزده سوى حنان وطيبة، وظهره المنحنى زاده وقارًا، وتقول الحكاية أن ظهره انحنى نتيجة حمله لهموم الناس.

ومتجر التفاؤل يقبع في زقاق من أزقة حينا الفقير، على أرضية غير ممهدة، ومصابيح إنارة خارجية نصفها معتم، أما رائحة القمامة فتفوح في كل مكان عدا محيط المتجر، الذي تفوح منه رائحة الفانيلا والشيكولاتة، فلك أن تتخيّل أي مشقة يتكبّدها المشترون للوصول إلى العم "جمال"، فقط لشراء الحلوى، ولكن .. والحق يقال، كل من تناول حلواه، صعد بطموحه وتفاؤله لأعلى المراتب والنجاح والغنى إلى الحد، الذي اكتفى صاحبه فيه بعدم تناول

الحلوى بحجة مرض السكري، وبمرور الوقت أصبح معظم أبناء الحي أغنياء باستثناء صاحب المتجر، الذي كان يبيع حلواه بثمن بخس.

وسألت العم "جمال" ذات مرة: "لما تبيع الحلوى برخص التراب؟! أنت تبيع شيئًا أنت وحدك من يستطيع صنعه؟! وبابتسامته التي عهدتها في محياه أعطاني من برطمان البونبون من دون أن يأخذ مليمًا، وقال بتنهد: "لطالما فكرت أن أبيعها بالمجان!"

ومن أهل شارعنا من يخشى المتجر والحلوى والعم جمال، ليس بحجة مرض السكري فقط، بل اتهموه بالشعوذة والسحر، وأنه يأمر الجان بتغيير القدر، وأسماه البعض بالشيطان اللئيم، لأن طيبته لم تظهر شرًا أبدًا.

عاش العم "جمال" حياته كلها مكتفيًا ببيع الحلوى، ببيع التفاءل للناس، كان فنانًا بحق، وأصبح يؤكد ذلك رسوماته الجميلة بألوانها الزاهية على باب متجره الفقير، وصوت الموسيقى التي كانت تخرج من مذياعه المتهالك. العم "جمال" اكتفى بعائد الحلوى الفقير في سبيل بيع التفاؤل للناس، لو انّك تدري لم يكفه عائده من شراء ملابس أو حذاء، فقط.. كان يحصّل قوت يومه بالكاد.

بعد سنوات، حين أصابه الشيب، طمع فتوة شارعنا في محلات الغلابة فأخذ متاجر كثيرة بالسطوة والعنف من ضمنها متجر العم "جمال" الطيب.

أذكر المرة الأخيرة التي رأيته فيها، أخرجه رجال الفتوة بالقوة خارج المتجر وبعثروا برطمانات الحلوى في الشارع بكل همجية، وأنزلوا بالمحل تكسيرًا، وتعالت صيحات أن الشر بتر اليوم من الشارع، وأن الحكومة كانت تخشى تجديد الشارع وإصلاح المصابيح بسبب ما شيع من فأل غير طيب سببه هذا المتجر، وما وجدوا منه إلا أن افترش الأرض محاولًا تجميع الحلوى وهو يصرخ الحلوى، الحلوى، وتجمهر الناس وداسوا الحلوى غيظًا، ومنهم من تقارعوا بالحلوى مستهزئين به قائلين: "خذ حلواك وتفاءل بها، لعل التفاؤل يستطيع أن ينقذك"، بكى العم "جمال"، ولأول مرة آراه يبكى، حينها قال أحدهم: "خذ جرعة سكريات وسترحمك من البكاء"، وأخرون ظنوا أنه يبكى لأنهم أخرجوا الشيطان والجان القابع في الحلوى، كانوا من هؤلاء الناس، الذين معظمهم ممن تنعموا بنعيم كان نتيجة حلواه.

وإلى اليوم منذ خروج الشيطان، نجلس على المقهى البلدي على أول الشارع ننتظر الحكومة؛ لتجدد الشارع والمصابيح، تنظف محيطه وتخرج القمامة، وتبدأ في فتح أفران الخبز المدعم.

آخر ما سمعته، أنه بينما كان على سرير الموت لم يزره أحدٌ ممن باع لهم تفاؤله وطموحه وعزيمته طيلة حياته، شعر في أواخر أيامه بأنه أعطى الناس من تفاؤله هو؛ ليُترك وحيدًا حزينًا للأبد.

فكانت قصة العم "جمال" رغم الكآبة، التي لا تخلو من فكاهة تستبطنها طيبة العم جمال وابتسامته الحانية، فأنت تتحدث عن خراب متجر للحويات، عن بائع التفاؤل الذي داسوه، عن سواد الأبيض وعتمة النور، ثمة متناقضات لا تزيد القصة إلا تعقيدًا وسخرية.

أخيرًا.. مات العم "جمال" حزينًا، وجدوا جثمانه متعفنًا بعد أيام ممسكًا بيده قطعة حلوى وورقة كتبت بيد مرتعشة الكلمات الآتية:

"الحلوى لا يسكنها الشيطان"

قيصر والتفاح

فرح الشعب جدًا، ولكن اعتراه حالات من الخوف، حين تردد بين الفرحين بأنّ أشياء أحزنت قلب قيصر، وهذا أمر جيد وسيىء على حد سواء، جيد لأنه يعني أنه ربما سيموت قريبًا أو أن يضعف فيأتي غيره، وأمر سيء لأنّ حزنه قد يقلب الأمور رأسًا على عقب، ففي هذه الأحوال تصير الأمور غير مستقرة؛ فالضرائب وأخبار الحروب والسلع الغذائية تتغير بين يوم وليلة، والأتعس من كل ذلك هم الرومان، لا تصدق ما يتناقل على ألسن مجلـــــــــــــس الشـــــــــــــيوخ.

بعد أن سيطر هندريانوس على قراصنة البحر الأبيض المتوسط استثناه قيصر بعد أن استشار ألكسندرا في أن يمنحه شيئًا جديدًا، ربما وسامًا يحمل اسمًا جديدًا أو سلطانًا مطلقًا، مازحته ألكسندرا التي كان يدعوها سراً المعتوهة، قائلة: إنّ سلطانًا مطلقًا قضى بأن يفرض هندريانوس سلطانه على قيصر ذاته! إلّا أنّ قيصر قال لها: "لا تهزأي!... ليس كل من يحمل اسمًا يحمل بالضرورة معناه".. قيصر فوق المطلق، هو الذي نصب نفسه إلهًا، وشرّع طقوسًا أغلبها تدور حول التفاح، عصير التفاح، دبس التفاح، خمر التفاح!، وأيّ شيءٍ يتعلق بالتفاح! لماذا التفاح؟ لا يعلم، ولكن ذات صباح استيقظ

وهو يعتريه شعور تقديس التفاح! كان مجنونًا؛ إذ اهتم جدًا بمنع استخدام أو أكل التفاح إلّا في نطاق العبادة له شخصيًا، وهو ما كان يكرهه هندريانوس، وهو ما كان يكرهه قيصر، أن يكره هندريانوس التفاح، واعتاد الأول ألّا يبالي ظاهريًّا، واعتاد الأخير أن يتجنّب الكلام في أمور التفاح، إلّا أن الأمور لا تسير على نفس الوتيرة.

ذاع أمر هندريانوس بأنّه لا يأكل التفاح!، والحق يقال – أو هكذا ذيع! – أن قيصر حاول إقناع هندريانوس بقوة التفاح، التفاح يحمي المرء من الخطأ، تستجيب المخلوقات العليا لنداء التفاح، الحيوية والنشاط، الحرية، الأمر يا هندريا لا يتعلق بشيء يمكن أن نفهمه، بل بالأثر على المدى البعيد، أنت ملك البحر، ما الذي لا يجعلك ملك البحر والتفاح!، قال هذا لأنه عرض عليه مزرعة تفاح يباشر إنتاجها بنفسه، وهو أمر يفوق السلطان المطلق بذاته!، هذا لأن التفاح كان ممنوعاً في ذلك الوقت من البيع والتجارة، أو قل: إن وجوده اقتصر على استخدامه في تقديم شعائر قيصر! متى كنت كذلك يا قيصر، سؤال باغتني كثيرًا.

ولد قيصر طفلًا أحمق، أضاع الهند والبلاد المجاورة بغبائه، جسمه لا يفرق عن جسم أي عامل مراهق ف الثانية عشر! متى نصبت نفسك إلهاً يا قيصر؟!.

قصة الدواجن؟... سأخبرك إياها!.. هي – عمومًا – من القصص التي تجعلك تضحك من فرط عبثها!، قيصر له مزرعة دواجن كبيرة وأحبها جدًا، وفي مرة علم أن بعض العموم وجد أمام منازلهم بواقي تفاح، فأمر أن تتبعثر أمامهم ثمرات التفاح، وأن ينحنوا كالدجاج محاولين أكلها، وسط ضحكات الجيران والناس وقهقهاتهم، التي أتت بهم الأخبار من بعيد، لمدة ساعة من المرح حاول السيئون أن يأكلوا التفاح وهم عاقدو الأيدي وراء ظهورهم منحنيي الظهور، والأرجل منتصبة، وأحياناًكانوا يركلون من قبل جنود رومان قائدهم هو هندريانوس من أجل تقليد صوت الدجاج، وهم يأكلون التفاح، يومها.. من انقطع عن الكاك كاك.. مات للتو!

ذاعت القصص إلّا أنّ قيصر قد فاض به من أمر هندريا، الذي لا يأكل التفاح، ولا ينكر أن عناد هندريا أعجبه، وقرار أن يتخلى عنه قرار غبي! هندريانوس ذكي وشجاع وله من أمور الخبرة والحنكة ما يجعله ينجز في شهور ما ينجزه غيره في سنوات، ولكن اعتراضات مجلس الشيوخ كانت أقوى، ولأول مرة خاف قيصر من أمر أعتياد آخرين عدم أكل التفاح، الذي يؤول معناه إلى عدم عبادة قيصر! الأمر مربك، ولكن شعور الخوف كان ممتع.. ذات مرة صارح قيصر ألكسندرا بأنّه: "عندما ينسى المرء شعور

الخوف فإنّه يستمتع بالخوف حين يجيئه، وحين يتألم يستمتع بالألم" قال هذا لأن جسده الهزيل لم يعرف المرض يومًا وأقنع نفسه بأن القوة تكمن في التفـــاح!

في تلك الليلة، شرعوا في الرقص، وتواترت دقات الطبول على مسامع الحضور، رائحة التفاح تفوح في كل مكان احتفالًا بسنوية ملك قيصر، إلّا أنّ تفاحًا صحيحًا لا يوجد إلّا في طبق واحد أمام قيصر، وباشر أول الطقوس.. عصر التفاح.. وكان ثملًا، حين قرر أن شرب عصير التفاح اليوم سيكون ممزوجاً بالدم..

تعجب الحضور فلا يوجد حيوانات حولهم،

"دم إنسان لا يأكل التفاح"،

يا لا الكارثة،

التعطش للدم يجري في عروق الجميع المتشوقين لكلّ شيء وحشيّ وجنونيّ ومثير!

"من يشرب معي؟!"،

الجميع رفع يده ما عدا واحدًا، "جميعنا يا قيصر، نشرب معك التفاح والدم، رو ظمأ شعبك وخدمك"، هندريا تظاهر بأنه لم يسمع، هل تتراجع؟

لمرة واحدة فقط تراجع؟

قضمة أضاعت خلود آدم.. قضمة سترد لك الحياة الآن، وسيكون من العبث أن تتكرر القضمة على مختلف النتيجة، وتكرّر السؤال، وكانت نفس النتيجة..

هل ألكساندرا المعتوهة كانت على حق؟!

لذا فمقدار الحزن كان مناسبًا فعلًا لحبه لهندريا، أعني وأنا من العموم، الذين ليس لرأيهم أي أهمية، أن هندريا كان رفيق قيصر الوحيد، دعك من المكاسب العسكرية، أنا أقصد أن قيصر كان يحتاج فعلًا، لأن يجد من يعارضه، من يناقشه، من يقول له أنّه مخطئ، من يذكره بأنه إنسان.. وحكيم مثلي يعلم تمامًا أن قيصر، كان يجد أمانه في التفاح، عندما لا يصبح شيئًا يخاف منه الإنسان، يصنع هو ما يخاف منه، فيكون مصدر أمان له.

يقال أن قيصر مات ثملًا غير مريضٍ، حزنًا وكآبة على هندريانوس، عيناه الجاحظة لا تفارقان المنظر، ويتساءل من يستعبد من؟ هو من يستعبد شعبه أما التفاح من يستعبد الجميع، وباغته سؤال لأول مرة .. "لماذا كانت القضمة الأولى من التفاح؟!"

حانة وسط البلد

الليلة الأولى – صلاة الحانة

كان البرد قارصًا؛ فاقترح أحدهم وسيلة للتدفئة غير احتساء الشاي في مقهى بلدي مغلف بالمشمع الشفاف، الذي يحاول صد برد الصقيع الخارجي بلا جدوى، اقترح أن نذهب لحانة بوسط البلد، دخلنا واتخذنا ستة مقاعد من الخشب، مقاعد شبيهة بمقاعد المقهى البلدي في جو يخيم عليه الرتابة والظلام والدخان، لكنّه دافئ.

شرعنا في أول شراب لنا، كان التجربة الأولى بالنسبة لي، خلفيتي المتشددة التي تربيت عليها، جعلتني أشعر طوال الوقت بأن ما أفعله هو فعل مشين وخاطئ، وأني أرتكب ذنبًا عظيمًا.. في البداية كنت أشعر بعدم ارتياح، لكن صارت الجلسة أكثر أريحية مع مرور الوقت.

بعد مرور ساعتين، وثلاث زجاجات أخذت أشعر بأن رأسي ثقيل، وبدأت أترنح رغم ثباتها، شعور البهجة اعتراني طول الوقت، وكان من الممكن أن أضحك لدقائق كاملة رغم تفاهة ما قيل، وذهب عنا برد الشتاء، حتى انتزعنا معاطفنا، وجلسنا نشرب زجاجة تلو الأخرى.

أحدهم حدثنا عن مديره في العمل وبعض المواقف الطريفة، التي يحكيها بطريقته الكوميدية، وكيف أن حياته تضيق به؛ بسبب مديره هذا، هنا قال له صاحبنا بلهجة فلسفية: إنّ الكون واسع جدًا، وإذا قارنا أنفسنا بضخامة

سنكون أصغر من كائنات وحيدة الخلية كما هي بالنسبة لنا الآن، قال وهو ينفث دخانه نحو الأعلى:

"هل سمعت عن أميبا تضايقت بسبب أميبا اخرى أو نملة ضاقت عيشتها بسبب نملة؟"

ضحكنا كلنا ضحكة عالية وقال أحدهم: "لو أخذنا كل الأمور على هذا المنوال لن نحزن أبدًا"

فصرخ ثالثًا: "نعم يا عزيزي كلنا كائنات صغيرة جدًا، وحيدة الخلية"، "أسكت يا عدمي!".

طرق المنضدة بيده، و اغرورقت عيناه بالدمع بسبب الضحك، واصطدمت يده بكأس ارتطم بالأرض، فجعل صوت الارتطام الصمت يخيم على المكان بضعة لحظات، إلى أن جاء النادل، لملم الزجاج المكسور من دون أن ينبث ببنت شفة، وكان واضحًا أنه اعتاد مثل هذا، هنا مال أحدهم على النادل وقال:

"لا تلملم أشلاء الزجاجة المكسورة فحسب، بل لملم معها أشلاء قلبي"، ضحك الجميع، وضحكت معهم، وفكرت لماذا أكون دائماً رد فعل لا الفعل، لِمَ لا أضحك إلا إذا ضحك الجميع، ومنذ تلك اللحظة قررت أن أكون أنا الفعل على الأقل في تلك السطور القليلة الآتية.

" عارف ليه .. من غير ليه!"

في اللحظات التالية انضم إلينا أصدقاء آخرون، لا أذكر من كلامهم شيئًا، ولكن أذكر أنهم كانوا واعين لدرجة تدعو للاشمئزاز.

"ليتك مثلنا، فنحن في أصدق حالاتنا عندما نغيب عن الواقع".

في طريق العودة، وعبر نافذة السيارة، تراءى لي كل الواقع بكل قبحه، ورأيتني أسير في الشارع وسط السيارات، التي تخترقني من دون أن أصطدم بها، وقلت في نفسي: إنّ آلام الواقع أشد.. أنا أموت كلّ يوم، ولا أحد يرى الإصابات، التي تدمي القلب والروح معًا.

"تعي الحقائق كاملة أكثر عندما لا تكون في وعيك".

الثقة والإيمان والخوف والحياة.

كنت أتمنى يومًا ما أن يؤمن بي أحدهم، لست فاشلًا أو قليل الحيلة، ولست أزعم أنني عبقريٌّ قادرٌ على تغيير الزمان، تغيير الزمكان.. هه!.. آينشتين فيم كان يفكر.. بلانك.. الهروب من واقع أليم يدفعك للابتكار، للإبداع، بهزة القطع، تقطع ألما سابقًا لتخلق ألما جديدًا، وبين الألم والألم معاناة، أنا أعاني إذًا أنا موجود، يا للسخف...

هل ما أفعله ذنبًا؟ يا الله.. اغفر لي لأنني لا أعرف ماذا أفعل.

أبي وأمي وأخوتي، أنا وهو وهي، حجرات عقلي، مم تتكون؟ ومن أنا فيهم؟! من؟ وهو أنا كأنا، ومن هو أنا.. كالآخرين، فرويد، عليك اللعنة.

قصص الجامعة والثانوية والمدرسة،

الشارع والدولة والعقيدة والدين.

والله.

"إني أتعفن مللاً" – فان جوخ

هلا تأتي يا الله؟ أنا منهكٌ لا أستطيع القدوم إليك.. هلا أتيت يا الله؟ أتوسلُ إليك يا من لا تتعب ولا تنهك، يا كلي القدرة، ت دائماً انزع الشر والحروب والفقر والحزن والروائح الكريهة، اخلق المعنى في الوجدان، وانشر الورود ورائحة الياسمين..غير طبيعة الإنسان يا الله، لا تجعلنا نتعطش للدم أكثر من تعطشنا للماء.. أسألك يا الله، هل تتوازن الحياة بتوازن السعادة مع البؤس، أو الحب مع الكراهية؟ ولو لماذا لا أرى سوى الحزن سيد المشهد؟!

الطبيعة والموت.

يا الله..

الليلة الثانية ـ على حافة الكون

اليوم رأيت الحقيقة، جلست إلى حافة الكون، وكانت نملة بجواري، وحين توقفت الأرض لحظة، رأيت فيها كلَّ شيءٍ ساكنًا بلا حراك، أدخنة المصانع، مصاعد الهيدروليك، تكاثر الأميبا، شلال ما، بركان ثائر، أمي تقطع البصل بالمطبخ دامعة، السحب، الصراعات، الجنون، أصبح كلُّ شيء يبعث على الرتابة والملل من فرط السكون، بينما رأت النملة أن المشهد فيه من الحيوية ما يجعله مثيرًا إلى الحد، الذي ينعدم فيه الملل نسبيًا، ورغم الاختلاف بيننا، رأينا سويًا أنّه رغمًا عن السكون والإثارة والحركة والملل؛ فالعبث يغلب على المشهد، وأن أجفاني يغالبها النعاس.

وقلت لها أن قديمًا قال القديس أنّ الشر من صنع الإنسان، بينما أرى أن الجمال فقط من صنع الإنسان، فنحن من ابتكرنا رائحة النرجس، وبيع الفل في إشارات المرور، وابتكرنا السلم الموسيقي والنغمات، ورأيناها تتلاعب في الأفق، قالت النملة:

– لم أرَ مرة واحدة الشيطان متجسدًا إلّا في الإنسان، قلت:

– ربما.. ولكننا خلقنا الكلام من العدم وأوجدنا له القيمة والضار والمفيد، وخلقنا من المشاعر كل شيء حي، عارضتني النملة متعللة:

– الإنسان صنع الخير والشر معًا، ثم تلاقت نظراتنا وبدت الحيرة على وجهينا متسائلين: "هل الإنسان مهم إلى هذا الحد؟! كنا ظنناه تافهًا من البداية! ودار حوار ساذج بيني وبين النملة حول البطيخ:

– كم تحوي البطيخة من بذار أسود؟

– في علم الغيب.

– وما هو الغيب؟

– ما لا نعرف.

– وكيف نتيقن مما نعرف؟

– باليقين.

– مم؟

– من الوجود.

– وما يؤكد الوجود؟ أموجده؟

– لا، العدم، كما تؤكد الظلمةُ النورَ، والتعبُ الراحة، والملحُ السكر.

– ولم الضد بالضد؟ ولم الأسود عكس الأبيض؟ ومن أوجد الضد في المركبات؟ أقصد المشاعر!

– عقلك مطلق، لذا لزم التحديد.

– المطلق الله!

– وأنت على صورته.

– وبخصوص الشر والخير والجمال؟

– نفخ الإنسان فيها نسمة حياة.

– وأصل الأشياء؟

– الأصل.

– والصورة؟

– كل عبث.

– والحب؟

– ما يوجع، والوجع وجود، يتحقق الإنسان من وجوده عندما يتلامس مع آلامه.

– الحب يوجع؟

– الحب هو أن تأخذ منك للآخر.. وأن تأخذ منك هو الوجع، كقطعة الروح!

– والصبر؟

– ما يوجَد.. ويتحقق الإنسان من وجوده حين يعي الكارثة.

– والكارثة؟

– نصف المشهد.

– والنصف الآخر؟

– لا يوجد.

ولكم اندهشت لثقة النملة ولتفاهتي! ثمّ توسلت إليها أن تعطيني شيئًا من الحكمة، كما أعطت سليمان كي أفهم.. لكن عبثًا، وبينما كنت أحاول فهم معاني الكلمات، وجدت أن الفهم والمعنى نسبيّان، وإني لن أفهم كلام النملة أبدًا، فضلاً عن أن النعاس ظل يقاتلني، وما أبقاني مستيقظاً هو حماسها المستفز.

الدهر والأزل والأبد ونحن نشاهد الأرض ساكنة بلا حراك، وكم طلبت منها تغيير المحطة ولكنها ممسكة بريموت كنترول لا تكل الانتظار!

جلسنا إلى حافة الكون ننتظر مشهدًا آخر، إلا إنها سبقت وأخبرتني مراراً، بأن ما نراه نصف المشهد،

وأن النصف الآخر..

لا يوجد!

الليلة الثالثة ـ في أمعاء دب قطبيّ

تلك الليلة جلست على المقهى بأول الشارع، ورأيت أناسًا ملتحفي الأسود والأبيض، يسيرون في طول الشارع الرمادي، وجلس أبيضان بجانبي حدثوني بكلام غريب، وفي آخر الحديث ألتهموا رأسي.

قال الأبيض الأول للآخر بأن الكون أصغر من حبة خردل، ذرة غاز محبوس بأمعاء غليظة لدب قطبي أكبر منا جدًا، مثلما يوجد في أمعائنا الغليظة عوالم كثيرة لكائنات لا ترى بالميكروسكوب لأن طولها أصغر من الطول الموجي للضوء، ولما سأله الآخر عن حل لهذه المهزلة، أخبره الأول بأن الحل في اختراع ضوء له طول موجي مختلف، ولما انتبها لوجودي سألاني عن رأيي فقلت:

- لما كنت طفلًا، أخبرني أبي أن الحقيقة الوحيدة تكمن في الرحيل!

بينما تهكم الأبيضان وقال أحدهم بأن قصة الدب القطبي كانت هي الحقيقة الوحيدة، واستطرد الآخر:

- إنّ كلّ هذا من الممكن أن ينتهي بكيس فوار.

الربع خريفٌ، وبلاط الشارع تراكمت عليه أوراق الهشيم، يدوسها المارة كما لو كانت بلا مشاعر! ورأيت القنبلة، كانت الأشلاء تتناثر، وأصاب أذني الصمم، بينما الغريبان يكملان حديثهما رغم الكارثة، وأنا لا أسمع ولا

أدري هل بسبب الصمم أم بسبب أنهما ألتهما رأسي فأصبحت بلا أذن، وفي لحظة لم يكن هناك أسود، لكن الشارع المكتظّ بالمارة ما يزال رماديًا.

وفكَّرت – مثلما أفكر دائمًا– كيف سيكون الغد؟ الزمن له حسابات أخرى، فلو حدثتك عن كم الطاقة لكتلة متناهية الصغر في وقت لا يذكر، فأنا أحدثك عن مفعول القنبلة، ولو حدثتك عن انبعاج شبكة الزمكان الكوني لثقب أسود، فأنا أحدثك عن اللا وقت، عن انتهاء الزمان.. وبين تأثير الزمن وانعدامه، تكون الحياة والموت.. تارة نتعلق بالحياة فيكون للزمن تأثير القنبلة، وتارة نتعلق بالموت كتأثير الدخان، اللا زمان، تارة للمشاعر يكون حدَّ السطوة، وأوقاتًا ننتقم منها.

قرأ الأبيضان ما يدور في رأسي، وهمّ أحدهم في الكلام، إلّا أن مَلَكْ سماويّ قاطعه، جاء وأخذ خطاب مغلق، وطار به للتو نحو السماء، ولم نعد نراه، سألت الأبيض صاحب الخطاب، وأخبرني بأنهم اعتادوا إرسال الخطابات المغلقة للذين يعيشون بالأعلى، إلا أن إجابة لم تستقبل، وانتابتني الحيرة، هل هناك من يعيش بالأعلى أصلاً؟! فرد الأبيض الآخر بعصبية:

– طالما لم يجدوا الخطابات ملقاة بصناديق الزبالة فالملكْ الساعي صادق وأن هناك من يستقبلها وإن لم يرد.

للتو، اختفى كل أبيض لكن الشارع المكتظ بالمارة لازال رماديًا! غبار، الصورة ضبابية، وكأن اللون الرمادي يأكلني، لا يوجد أسود، والأبيض

دوماً ما يتشتت إلى سباعية الطيف، كسلم موسيقي لمقام حزين، تتناثر نغماته في الأفق، لا يوجد من يعزف الأوتار، وإن وجد؛ لا أدري من الذي يعزف، إلا أن عزفه يملأ الدنيا ضجيجًا وسخفًا.

في غرفتي أتابع النشرة الاخبارية، لا حزين، لا سعيد، لا منتشي، وتنهش عقلي بنات الأفكار، متى حدث كل هذا؟! كنت على أي كوكب وأي النجوم تزامنني؟ متى يستريح إله الدماء؟ ومتى ينقطع الصمت؟ إلا أنّ الصمت لا يحتبس، ولو...! فعازف النشاز لا ينفك مغنيًا بصوت بشع كطبقة سوداء خلف موسيقى الروك، ثمة صبغة عري ودماء تسود المشهد، وكان نشاز العازف كنشاز المرأة على بعلها ونشاز بعلها عليها.

وسمعت أنّ الموسيقى شر لأنها تحيي جوارحنا التي كانت ينبغي أن تموت، وتذكرت حياتي الفائتة والآتية، قلما فرح الإنسان، واندهشت لما تتشابك حيوات الناس إلى هذا الحد الرهيب، ورأيت التشابك كغيمة سوداء تشكّلت من خيوط متشابكة في السماء، حتى اختفى اللون الأزرق من فرط سواد التشابك.

الليلة الرابعة ـ الكوب المكسور

كان صوت ارتطام الكوب بالأرض مدويًا، إلّا أنّ صوت الصراخ داخله كان أقوى رغم الصمت الرهيب، الذي عم البار آنذاك.

طبيب بمستشفى حكوميّ لم يكن يهوى الطب يومًا ، كان وحيدًا، يعيش ويأكل وحيدًا، يذهب إلى البار كل يوم وحيدًا، يشكو همومه لكوب من البيرة وحيدًا.. هو الآخر.

لا أذكرُ تفاصيل القصة، لكنني رأيت في عينيه حزنًا طال أمده سنين طويلة، رأيت الحياة واحدة، ورأيت اتساع الكون بحدود حيطان البار ذاتها.

كان لسان حاله يشكو هموم الوحدة.. كونك وحيدًا يضيق خناق الكون حولك، الإنسان لا يحتمل الوحدة، فخلقت حواء من ضلعه، وكل يوم يستيقظ، ويحصي ضلوعه، ويجدها كاملة فيتألم، على الرغم من الصحبة كان شعور الوحدة يقتله، لك أن تتخيل طبيبًا له مركزه الاجتماعي المرموق شارف على أواخر الأربعينات لا يعبأ لمصاريف الحياة، لا زوجة، لا أولاد، يأتي كل يوم أصحابه لشرب الدخان على حسابه بعد عودته من البار، ينفث أنفاسًا فارغة بالهواء، ورغم الصخب إلّا أنّ هدوء القلب يذهب به بلا وعي للاشيء، فينتظر رحيلهم بفارغ الصبر عازمًا أن ينهي استغلالهم له هذه الليلة، إلّا أن صخب الاستغلال كان أهون من هدوء الوحدة.

كل هذا لم يحكه لي، لكني رأيته في عينيه، وأنا – لسوء حظي – أفهم الناس من عيونهم، فأحمل همومهم بما لا يطيق همي.

وفكَّر.. هل هنالك من يهتم لأمري؟ أنا أحب البيرة، وتراءى في مخيلته مراحل تصنيع البيرة، الشعير والكحول والنقل والتصنيع والجمارك وتجار الجملة وحتى عمال البار، الصحبة رغم المصلحة، كل هؤلاء يسعون لراحته حتى ولو على سبيل المصلحة أو بطريقة غير مباشرة، ربما كان يأتي أصدقاؤه بحكم الونس لا لأجل الكيف ببلاش.

وهنا ابتسم وقال للنادل:

- أرأيت ربما كان هناك من يهتم لأمري! في البداية لم يفهم نادل البار، فاستطرد الأخير قائلًا:
- لولا أن الموجود معنا حزن متجسد، ما كانت الشمس أصبحت عابسة ولا الأرض أعلنت الحداد يوميًا على ضحايا الحروب والمجاعات، هل فكرت في أصل الاشياء؟ أنا فكرت واعتقدت أن الأصل دائمًا هو الحزن، وأنه متأصل في طبيعة الأشياء عمومًا، والإنسان خصوصًا تحت طيات الأشياء، تنزع الطبقات تلو الطبقات، تجد الحزن قابعًا في العمق لا يتنفس كالموت، إلّا أنه موجود، وفكرت في أنه لو كان الانسان يعلم أن الارتباط بالأشياء هو سبب الحزن ما كان اعتاد المكيفات حد الإدمان ولا المسكرات

حتى الثمالة ولا الدين حد الهوس، وحين مت أخبرني الله أنه حاوطني بكل المؤشرات وكل الطرق التي سترسلني إليه، أما أنا فأخبرته أني لم أر شيئًا، وصارحته كم كنت وحدي! كنت وحدي في الحياة حاسبًا مليارات البشر فراغ، وأني عشت حياة ليست لي، أخبرته كم كنت وحيدًا حينما عشت وحدي.

نظر نحو النادل، فوجده منصتًا جدًا لما كان يتحدث به رغم طلاسمه، فلما رأى جديته في الاستماع، طرق خشب البار وضحك مقهقهًا بهيستيريا ساخرًا من النادل الغبي، وسقط الكوب على الأرض وكان صوت ارتطامه بالأرض مدويًا، هنا تبدلت الضحكة بنظرة حزينة كانت قد غادرته للتو، لكن طمأنه النادل أن كل شيء على ما يرام، وأنه لن يقبل عوضًا للكوب. هنا نظر للكوب المحطم وقال:

" لا يهمني أن أستعوض عن الكوب، يهمني أن أستعيد المعنى، فلقد وجدت المعنى للتو في كوبي المكسور!".

أبطال من ورق

الرجل الذي حلق بطائرته الورقية

قرار مفاجئ اتخذه للتو، اندهش له الجميع، هو نفسه تفاجئ لهذا القرار! سأله الجميع عن ترتيبه أو تخطيطه لهذا القرار لكنه أجاب بالنفي، هو فعلًا لم ينو لأي شيء من هذا، بالعكس، كان يجهز؛ ليكون ضمن القائمة الممتازة من الموظفين، للمرة السابعة عشر على مستوى الشركة كلها.. شركته لم تكن صغيرة، وربما حالفه الحظ بأن يعمل في المبنى الرئيس للشركة، إلّا أنّ المنافسة على القائمة الممتازة السنوية لم تكن سهلة البتة، كما كان غير المتزوج الذي أفنى حياته لمصلحة الشركة، وليس كونه فنيًا – فحسب – وفق طبيعة عمله بصفته مراجعًا فنيًا لجميع المشاريع، هو الحاصل على الدكتوراه في علوم الهندسة يوصله إلى القائمة الممتازة، بل انخراطه في الأعمال الاجتماعية والخيرية وقيادة مجموعات شبابية، وتجهيزه البرامج التدريبية هو أساس نجاحه.

على حين غرة، استيقظ، لم يمرر ماكينة الحلاقة الإنجليزية على ذقنه الخالي من الشعر تقريبًا، كما يفعل يوميًا، ارتدى البنطال الجينز، الذي طالما أحبه، ويذهب به مشاويره السريعة، وقد كانت أول مرة يذهب به للعمل، ربما حركه عقله الباطن في هذا اليوم لكل تمرد كان! كانت حركاته سريعة حتى إنه لم يركب سيارته بل فضل أن يمشي للشركة مسافة نصف ساعة تقريبًا، مر

خلالها على كل محلات الطريق ونظر إليها نظرة تمعن لأول مرة ،كأنه سائح أجنبي لهذه البلد، وسأل نفسه، "منذ متى وأنا مفتقد لتلك المتعة من النظر! هل مازلت أبصر فعلًا؟!" عدل من وضع النظارة على أنفه واضعًا يده اليسرى في بنطاله الجينز، وهو يحكم باليد الأخرى ياقة الجاكيت البيج الـ (Water proof) دافئًا ذقنه في صدره مانعًا دخول البرد لرقبته، وتمنى على استحياء أن تمطر قبل دخوله الشركة، وأن يستمتع بالمطر لثوان قبل دخوله الشركة.

– ما الذي جعلك تطلب الاستقالة المبكرة؟ هل هناك مشاكل؟ أنا لا أعرفك منذ أمس، لنا سنين طويلة عملنا فيها معاً! أنت لست أنت!

– صدقني أنا هو أكثر من أي وقت مضى!

– هل تريد راحة لفترة ما؟ دعك من لوائح الشركة، يمكنك تحديد الفترة التي تريدها.

– لا.

– حسناً سأنتظر فترة ربما غيرت رأيك.

– قرار نهائي، أرجوك اقبلها.

بعد فترة من المباحثات والاندهاشات، التي اضطر الساعي أن يتدخل فيها، وهو يضع فنجاني القهوة على مكتب رئيس مجلس الإدارة حث فيها الدكتور على العدول عن هذا القرار، سأله المدير:

- هل هناك شركة أو عروض أخرى؟ هل هناك ما سبب لك مشكلة أو انزعاجًا؟

وطرح عليه رئيس مجلس الإدارة أن يكتفي بالعمل فقط، ويترك باقي الأنشطة، والقائمة الممتازة؟ وسأله عن الخطط المقبلة؟ وكانت جميع إجاباته تدور حول (لا، قرار نهائي، أرجوك اقبل استقالتي) ووعده الأخير أن الأمر لابد أن يدخل دورته المعتادة من الموافقة واخلاء الطرف وصرف المستحقات وهكذا، وأنه لآسف جدًا لهذا القرار، وإنهم سيفتقدون عمود من أعمدة الشركة، وطلب منه أن يقبل أي عمل مؤقت كـ (freelancer)، إلى أن خرج منتشيًا، وكانت المطر قد بدأت تمطر بالفعل، وكأن الطبيعة أعلنت انفتاحها عليه في يوم انفتاحه هو على ذاته.

كانت الأفكار تعصف برأسه، الحرية، المال، الراحة، استعمال الحياة!. كان يتناول الجبن بالعيش الأبيض لما سألته جوزيت في تعجب وهو — كعادته – يتناول فطوره بسكويت القمح مع القهوة المرة:

– ما سبب انقطاعك عن الدايت.. هل أنت بخير؟

– حسناً .. جوزيت الأمر لا يتعلق بالدايت أو القهوة، الأمر يتعلق بالشغف، كنت أبدأ الأشياء، وأتحفز لها لأني كنت جيدًا في ربط الأشياء كسلسلة لا نهائية من الإنجازات، أتفهميني؟ بمعنى أنني كنت أرتبط بإنجاز شيءٍ لأبدأ شيئًا آخر، وأتحفز لمجرد أنه شيء جديد، جوزيت هل تنظري لي؟

الأشياء لم تعد تبدأ ولا تنتهي، سأطلعك على سر، الأشياء أزلية سرمدية، لا تبدأ ولا تنتهي، أتعي شيئًا، نحن من نبدأ وننتهي، وأنا انتهيت مبكرًا، أنا كائن يتغذى على الإنجازات، إلّا أنني لم أعد أستطعم مذاقها كبسكويت القمح والقهوة؟ أتدركين ما أريد أن أقوله؟ جوزيت لماذا عيني في عينك ولا تنظرين لي!

دخل المنزل لاهثاً فقد اشتد المطر جدًا في طريق العودة ؛حتى أنه فكر أن قرار الذهاب من دون سيارة كان غير صائبٍ، لكنّه عدل عن هذه الفكرة فورًا، لما تذكر كلام أنطونيو عما سماه بـ (استعمال الحياة)، وأنّ الورق المسمى نقود، والدوامات التي تسمى عمل أو (Career)، وأن السيارات ومعايير الناس في الملابس والهندام والشعر كلها هراء، وأنّ تلك المعايير والمسميات والمصطلحات وإلى آخره، يؤول إلى تقييد الإنسان من كل جانب، وسأله عن الحرية:

- هل هذه الحرية التي تتمناها؟

وقال ساخراً أن العالم يذهب للجحيم.

انطونيو له من الحياة 58 عامًا قضاها مسافرًا معظم الوقت من بلده الأصليّ لبلده، الذي تعلم فيه بعد هجرة والديه، ودخوله إلى الجامعة في بلد

ثالث، ثم اعتاد السفر إلى كل بلدان العالم حسب طبيعة عمله كشركة مقاولات عالمية في مجال الغاز والبترول، نظر لي بائسًا وقال:

– لعمري سألت لماذا كل هذا، من أجل المال، ماذا سأفعل بالمال، سنتين وأتقاعد، ليس لي زوجة أو أولاد، عندي منزل كبير اشتريته بكل ما عملت في حياتي، وأسأل نفسي ماذا لو كان لي أسرة، من أين سآتي بالمال؟ الأمر كهذه المعضلة، هذه هي الحياة، أنت مقيد، تعمل لأجل أن تعيش ولا تجد ما تعيش لأجله لأنك أنفقت سني عمرك في جمع المال، تباً للمال!.

ربما هذا ما حرك فيه قرار مؤجل منذ فترة كبيرة، استعمال الحياة، كلمة جعلته يقرر أشياءً خاف منها طول العمر بلا طائل، حجز في دروس تعلم الموسيقى والرقص، ونادي الكتاب، أشغل مواعيده وأيامه كلها، وقرر أن يكتشف الحياة من البداية.

– لقد استهلكت.

– أنطونيو.. لايزال أمامك من العمر لتعيشه.

– الإنسان طاقة، والطاقة لا تفنى، ولا تستحدث من العدم.

قاطعنا صديقنا المصري، الذي لم أكن أظنّ، أنّه يسمعنا ضاحكًا:

- اللي عند الحكومة مبيروحش.

ضحكت رغمًا عني من فرط عبث الدعابة، وقلت في عقلي: "ربما الإنسان هو الطاقة التي تستحدث من عدم؟ وهل كونه موجود، يفنى؟!"

طردت الفكرة فورًا من دماغي، كما نصحتني جوزيت، كما أن انطونيو لم يهتم لما قيل.

ومنذ تلك اللحظة اختار صاحبنا الحياة، مثل طفل صغير، لا يعرف كيف يستخدم يده، بدأ هو أيضًا ينظر ليديه نظرة الرضيع! يحركها على أوتار الكمان، يصلح أجهزته المنزلية، التي كانت قد توقّفت على أعطال تافهة، يتصفّح كتابه كأن الكلمات تخرج منها لتسري في كيانه، عاش مئات الحيوات منذ أن قرّر كيفية استعمال الحياة، فكّر مداعبًا أنّه سيحتاج عمرًا إضافيًا على عمره؛ ليكتشف كيف يمشي، وكيف يجري، وكيف يحلّق.

في الحديث ذاته، أخبره أنطونيو أنّه يظنّ أنّ للإنسان أجنحةً ضمرت نتيجة التطور، إلّا أنه أعتقد أنّه لو كان للإنسان أجنحةٌ، لما تركها تضمر، سيطير بها دائمًا.. الظمأ للخلود والمطلق، وعند هذه اللحظة أدرك أنه يحلق بطائرته الورقية، فخط مقولته التي علقها على باب مكتبه وباب قلبه: "تبدأ الحياة حينما تدرك حقك في كيفية استعمالها".

الرجلُ الذي أبحرَ بسفينةٍ ورقيّة

في صباح ذلك اليوم، تحدّث مع زميله، وهو يحضّر القهوة الصباحية، ويشرب من كوب زجاجي صغير، وأصابعه تحاول أن تستمد أي حرارة من الكوب الصغير، فتمسكها بإحكام، وبدا وكأنّه يستمد من كوب القهوة لا الكافيين أو الحرارة فحسب، بل قل: إنه كان يستمدّ منه الحياة، التي طالما عبثت بأحلامه.

- وكما قلت لك، تلك الأفكار هي لأشخاص فاشلين، لم يكلفوا أنفسهم تعبًا أكثر ومحاولات أخرى، فاخترعوا لأنفسهم البؤس.. البائسون هم الهاربون، والبؤس، هو وجه عبث، يغطي الوجه المتخاذل، ويبرر البائسون، عفوًا، المتخاذلون تخاذلهم بألمهم، الذي هو نتيجة تخاذلهم.

لم يبدأ الكافيين رحلته المعتادة بعد، فأجاب الآخر بعينيه الناعستين ممسكًا بيد القهوة واليد الأخرى وضعها في جيب رداءه الأسود الذي طالما أحبه:

– لا تتحدث عن ظروف لم تخضها، أنت لم تختبر ما اختبروه ولم تعش ما عاشوه، أنت تتكلم عن نار محرقة تقف بعيدًا، ولا تشعر حتى بحرارتها، بينما هناك من يلتهب ألما داخلها، أنا عشت أبحث عن معنى، وأملي أني

يومًا سأجده، وحين أجده سأجلس متربعًا على عرش الوجود، في يدي صولجان حكمي، ومملكتي هي شاطئ الحياة، كل ما أسمعه اليوم من موسيقى ونغمات، سأعزفها يومًا على هذا الشاطئ، كلّ ما أسمعه عن حلو الحياة، سأعيشه يومًا، أنا في رحلة لهذا الشاطئ، أبحر بسفينتي الورقية، إلى أن أتحسّس رمال المعنى الذهبية، سأفترش الأرض، وأترك مياه اليقين تغسل ألمي وبحثي والمستحيل.

– حتّى تجده؟

– في بحر أوله العدم وآخره المجهول، لا يسعني النظر نحو الوراء حيث اللا معنى، وسبيلي وسط العابسين والعبثيين ومحطّمي ضياع الرؤية، هو خلق المعنى، لا مجال للتأويل أو إعادة فهم ديناميكية المصائر، ولا فائدة من خلق أزقّة اختيارية، السير وراء جزرة أسلم الطرق.

وبعد انتهاء يوم آخر من العمل الروتيني الممل بميدان التحرير، قرر أن يسير للمنزل على قدميه، وفكّر أنّه يخاف الوحدة، فبعد رحيل من أحبهم كلهم يومًا ما، لم يعدْ يخشى سوى الوحدة، وقف عند كوبري القصر العينيّ، ونظر للنيل، وتذكّر أنّه يخاف أيضًا الغرق، فهو لا يعرف العوم، وضحك ضحكة بلا معنى، وقال: "لو أن هناك فرصة لأتعلم العوم لقضي عليّ؛ خوفًا آخر قبل أن يقضي عليه" لكنه كم من مرة قرر تعلم شيء ما، وباءت محاولاته بالفشل!، وتذكّر كلامَ زميله صباحًا، وتذكر كلامه.

قصة عن شاب قرأتها وما أذكره جيدًا جل التناقضات، التي ظهرت في عقله لظرف زمان قصير جدًا، ورأيته حينها يرقص طربًا، لدقائق ثم يعتصر وسادته ألمًا وبكاءً، بالحق كان قلبه ضعيف إلّا أنّه كان صادقًا، صادقًا حد الهشاشة، ولم يستطع هذا الفتى العيش طويلًا، ليس لأن عضلةَ قلبه ضعيفةٌ جسمانيًا، بل لأنّ قلبه الصادق الضعيف، لم يتحمل العالم بنفاقه وعبثه، وقلت: "إنّ العبرة في أن القلوب الضعيفة، كقلوبنا، لن تسطيع العيش، يلزم قلوب صخرية حجرية للعيش في دنيانا".

وقلت في عقلي: "الله لم يخلق قلوبنا من نفس المادة، هناك قلوب اختلفت بها درجة الصلابة، ربما قصد بها أن تعيش في ظروف أخرى، أنا لا أستطيع أن أحلق بعيدًا عن هذا العالم، لكن هل من الممكن أن أبحر بعيدًا، هل من الممكن أن أقتل كل مخاوفي؟"

بالمناسبة، قلبي يخيفني هو الآخر، فهو لا يتحمّل ضحكة مراكبي عجوز، يعلم أنّها تخفي من الهموم ما عظم أن تخفيه ابتسامة ساذجة، ويتألّم لألم أحدهم، هل من الممكن أن أقتل قلبي؟ كان شعورًا جميلًا، وكانت مياه اليقين تغسلُ ألمي وبحثي والمستحيل، كنت أود أن أحدثهم عن جمال المعنى ورماله الذهبية.. هناك عند الشاطئ البعيد.

رسائل البحر[1]
الرسالة الأولى – أنا لست بخير

عزيزي سعيد

أكتب إليك؛ لأنني تعبت في البحث عن الجمال، واشتقت للرحيل، لا يوجد جمال نابع من الداخل أبدًا باستطاعته أن يغطّي كلّ قبحٍ خارجي، بالتأكيد.. لن تأسركَ ابتسامةَ طفل ينبشُ عن بقايا موزة في أكوام القمامة، أو جرافيتيّ ثوريّ مرسومٌ على حائط دمرته الحرب، وجعلت المكان خرابًا.

صدّقني أنا إنسان بسيط، لا يود سوى جلسة هادئة بجانب المذياع، يغوص مع حيرة أم كلثوم وهي تغني: "لا تقل شئنا.. فإن الحظ شاء!"، ومن ثم لا أعاود التفكير مرة أخرى، أو أن أمتطي صفحات كتاب صادق كحصان أبيض ثائرًا على كل أشكال القبح أمام بحر لا ينتهي، ورائحة يود عمرها ملايين السنين.

أنا إنسان بسيط، لا يتعشّم أكثر من حياة مبهجة، أو على الأقل خالية من الأسى والحزن، أتعشّم كلامًا حلوًا، الناس تعدّ من تلفظ بالسباب وتعامل بالفهلوة هو أكثر حنكة، يعدّون الاحتيال ذكاء.. الناس ترى في كلّ بشع ما هو جدير بالاحترام، وتنفر من ألوان الطيف، تنزعج من موسيقى الكمان،

[1] - هي رسائل لشخص وهميّ، سميته سعيد، وسعيد استحال لفترة من العدم للوجود، وراسلني كما راسلته.

وتستغفر الله من شعر فتاة يعكس صفاء أشعة الشمس الذهبية، أو عينين حالمتين عذبتين تهيم فيهما للأبد.

أنا إنسان بسيط يا سعيد، ولكنني ما أن أدركت أنني بسيط، حتى فقدت بساطتي، صرت كالرضيع الذي يخشى الطبيب لأنّه يعرف أنّه سيحقنه بعقاره المؤلم، لم يعد بعد رضيعًا، وكالطفلة التي تخشى لمسة من غريب، لم تعد طفلة.. هكذا أنا لم أعد بسيطًا.

أو تعرف يا سعيد؟ حين أقابل الله سأدعوه للنزول إلى لأرض، وأقول له: أنت — يا الله– لم تخلق أناسًا يناسبون قدرتك الإلهية الكاملة وكفاءتك الخارقة! الأرض احترقت، والصخور تشربت بالدم، الأرض عقدت راحتيها لتبتلعنا.. لولا إرادتك في استمرار الحياة، أقول له: إني فقدت ثمة رغبة في الحياة، ورغبت في الرحيل لأن عزم قصوري الذاتي لم يستطع أن يتحملني أكثر.

سعيد، إني أرحل لأني أشتاق لضوء جديد، ضوء ينكسر فلا يتشتت لسباعية ألوان الطيف، فلقد سئمت الضوء هنا برائحته الرتيبة التي لا تبعث على أمل أو حياة، لا أسمع لحنًا أو موسيقى إلا وسمعته حزينًا، لم تعد الحياة كما كانت، كما أن الضوء لم يعد كما كان، سأرحل لأني لم أستطع أن أتحمل نفاق الضوء، ولأني أخشى الظلام، سأرحل لأن في هذا المعنى الوحيد للحرية التي لم أعشها أبدًا، لأني سأمت كل الألاعيب الدماغية والدوامات

التي أخذني لها عقلي التقليديّ، لأنني لا أود أن أعيش بين هؤلاء في هذا الزمن الأسود.. لم يعد القلب ينبض بنفس الوتيرة التي عهدتها فيه من قبل، هناك شك وحيرة وارتباك وسأم وأمور أخرى كتلك!، حتى أنني في كل لحظة أوشك على الاختناق وانتظر وقوفه.

أتعرف ما ينقصني؟

ما ينقصني هو كل ما أنا لست عليه، وما أنا لست عليه كثير... كثير جدًا إن شئت الحقيقة! أنا لست على الاطمئنان ولا على الراحة ولا على الحنين ولا على الحب ولا على إدراك المعنى ولا على أي شيء يوضع كبنزين في مضخة استمرار الحياة الرتيبة.

لا أعرف السبب كما لا أعرفني الآن.. إن شئت الدقة، لا أعلم ما الدافع لاستمرار الحياة، أود لو تنتهي الحياة الآن، فأنا لما أعد بهذا الشغف الذي كنت به من قبل؛ لاستمر في هذه الحياة، كنت أظن أن البحث عن معنى هو كفيل بأن تبقى الحياة شيقة، ليس الاستمرار فحسب، بل والتمتع بها جدًا، أن تعمل ما أنت شغوفًا به، هوايتك، حبك، هو كفيل بأن تجد كل يوم الدافع لرمي كرة أخرى في بولينج الحياة العبثية والانتظار؛ لتكتشف بكم زجاجة بلاستيكية عديمة القيمة ستظفر، لكن ما لم أكن أعرفه فعلًا، هو صعوبة وجود هذا المعنى الذي من الممكن أن تعيش لأجله، وربما استحالة وجوده.

أنا مشيت في شارع سرمدي لا نهائي ودست أوراق الخريف، فتحطمت كالهشيم، ورأيت أشجار الليمون تصعد للسماء، وأفرعها تحتضني بقوة، فظننتها أحبتني، وفي عمق العناق كسرت عظامي، وفي إثر عاصفة شعواء سحبني شجر الليمون للسماء وقلت إيماني أوصلني للحظة المرجوة مذ زمن بعيد، ولكنني تُرِكتُ وسط العتم الأسود الكثيف كضباب الشبورة الصباحية إلا إنه كان أسودًا، لم أرى سوى اللوحات، التي طالما أعجبتني وألوانها الزيتية تذوب، وتستحيل إلى سواد.. رأيت ألوانها كأمطار زيت أسود تغطّي أشجار الليمون وأرض الشارع، ورأيت من قابلتهم كلّهم، وأحببتهم، ولما استعذت بهم باستغاثة، كنت أصرخ فخرج الصوت بلا صوت! مد أحدهم يده لي، وأمسكت معصمي حتى أدمى، وغناء يلوح في الأفق البعيد سامعًا صداه:"آه من قيدك أدمى معصمي" وانسكب اللون الأحمر، واختلط بالأسود فصار العالم مظلمًا، وكنت أقف في الظلام وحدي، فقط، اختفت الألوان والأصوات والموسيقى والناس وأوراق الأشجار، ولاحت ثمة دمعة لطفل في مخيلتي، واختفت فجأة وتركتني في الظلام، أقف وحيدًا.

أفهمتني؟

لا جمال ينبع من أصوات السباب والنكات البذيئة، أو نظرات الخبث والدهاء، لا جمال ينبع من رائحة دماء حيوانات في الشارع، يأكل الناس

لحمها في نهم، لا جمال في رائحة القمامة، لا جمال في دنيانا، سأرحل يا سعيد، لعلني أجد الجمال الوحيد في قرار أتحكم فيه كليًا بكامل حريتي.

الجمال يا سعيد، ثمة معنى نعيش لأجله لا نجده، كنت صغيرًا، وطلبت من أمي أن ألعب بنك الحظ مع أصدقائي في مدخل بيتنا، ونزلنا وجلسنا على حجر كان أبيض، ورمينا النرد، وكان معي مال البنك كله، ثم ثارت الرياح، وأخذت ما جمعته كله، عندها علمت بأن الحظ لن يكون حليفي، ولو امتلكت بنك الحظ كله، هناك ثمة قوى أكبر تتحكم بي وبالنرد والحظ، أنا أعرف شعور عروس الماريونت تمامًا وألوان الحائط وأوراق الشجر الساقطة وحبر الكاتب، أنا أكتب لأن كل طاقة سلبية بداخلي هي حبر أسود، أنا أعرف شعور الورق الأبيض جيدًا، لأني أكتب عليه ما كتب عليّ، ليس هناك من هو أنانيّ أكثر من الكاتب والشاعر والمؤلف، لأنه في سبيل راحته، يجرح الورق والقارئ، أنا آسف لجرحك سعيد لكني راحل الآن، ولكن لأجلي، استمتع برائحة يود البحر، وبأي كمان تسمعه، استمتع بجمال عشت ابحث عنه ولم أجده.

وداعًا سعيد

الإسكندرية

الرسالة الثانية – أنا منهك

سعيد:

أكتب أليك خطابًا آخر، خطابًا سوداويًّا كعادتي، أكتب كلامًا يخرج من ضلوعي، كحواء وهمية خلقتها للتو، ولا يخرج عبر حبال صوتية أنهكتها سخافة الحياة وغباء البشر، كلامٌ يذهب هباءً عبر موجات طولية لا نهائية، وحواء كلامي – لو تعلم – ليست حواء البشر، فحوائي لا تتكلم، بل تنصت – فقط – ولا ترد، وتعلم عني كلّ شيء، ولا أعلم عنها أي شيء، ربما مثير للسخرية أنني أتحدث عن شيء أخلقه، ولا أعلم عنه شيئًا، ولو أنك تمعنت ستجدُ أنّ الأمر ليس بالغريب إلى هذا الحد! وأن الأمر ليس مثيرًا للسخرية لهذا الحد، إلا إذا كنت من عداد الموجودين، وليس كحوائي، ربما الفارق أنها انعكاس كينونتي، وأنتَ الجزء المظلم، الذي وددت لو لم أراسلك يوماً من الأيام أو أن تكون مصدر إلهامي، بينما الشيء المشترك هو العدم.

يميل المرء للكلام عن نفسه، ولو أنه ليس بالشيء ذي القيمة، وأنا اكتشفت ذلك مؤخرًا، وهل تعلم ماذا قررت؟ ألّا أتخلى عن الحديث عني، ربما حديثي عني يسبر أغوار الكينونة لفرط غموضها، فأنا — تصور — لم أكن أعلم أني أكره البشر إلى هذا الحد إلّا حينما أخبرتك بهذا في خطاباتي، هم يستحقون الكراهية وهذا معلوم، ولكن لما صارحتك بهذا صرت مدققًا أكثر

لتصرفات العامة في الشارع، وربّما كنت ملتقطًا، لما يجعلني مصممًا على كراهيتهم، حتى إنني عندما أستمع لأحاديثهم في المواصلات العامة، أو سبابهم القذر، أو أشهد عراكًا على أتفه الأسباب؛ أتيقّن أكثر من كراهيتي لهم، ورغم الشعور المحبط هذا، إلّا أنني أشكر كينونتي التي كاشفتني بأهم مشاعرها، وتساءلت لماذا يخشى الناس الجمال؟ هل الجمال مخيف إلى هذا الحد؟ ولم معظم العامة من حولي متدينون، ولا يعرفون شيئًا عن الجمال، الله جميل فلما لا يعيشون الجمال؟! وتساءلت أكثر، إذا كان سبر أغوار الداخل يحتاج لكل هذا المجهود والوقت، فكم وكم يحتاج معرفة الخارج عن حدود النفس!

لا أستطيع تحمل عبء المسير ليوم آخر في هذه الحياة، قدماي تحملاني بالكاد، بضعة أمتار أخرى، وأقف مستندًا على ركبتاي، وأنا ألهث وأقول: إلى متى هذا الهراء؟ منذ فترة مرضت فتاة رجل الكشك –كما ندعوه – بجوار موقعي بالعمل، الذي طالما تحدثنا معه حول الشركة والحكومة والسجائر، وكان رجل طيب بحق على غير عادة أهل النجع، ولما مرضت أخذها إلى الطبيب، وأشار عليه بتحاليل معينة واستوفاها جميعها، ثم أجرى لها بضعة عمليات بمستشفيات الحكومة السيئة إلى حد مقزز، ورغم ذلك كانت باهظة الثمن، وقلت: ربما نزعة الأبوة لديه جعلته (يصرف اللي وراه وقدامه) كما يقولون لأجل الفتاة، إلى أن مرض هو الآخر، وأعاد الكَرَّة،

أطباء وتحاليل وعمليات، وتعجبت، هؤلاء القوم هم أتعس مخلوقات الله، في النجع يستكملون غذاءهم من صناديق القمامة، ويتجرعون الأسى بدل الماء، لم يتشبثوا بالحياة إلى هذا الحد المثير للاشمئزاز، هل منازعة مع الألم؟ وأي ألم يضاهي كميات الألم المعاش يوميًا؟ هم لا يطيقون المرض ولكن يتحملون وجع الحاضر والحياة يوميًا، قومي يهابون الموت، كما يهابون الجمال، فعسى الموت أن يكون جميلاً!

وقبل سنوات في مسلسل إذاعي وقبل ذهابي لامتحان ما، سمعتها تقول لزوجها: "أخوك مات للتو"، فتعلل بظروف السفر وأنه لن يستطيع حضور العزاء، فقالت له :"بل يمكنك!" وسكت هنيهة، فلاحقته زوجته: "لا تهرب إلى عملك، ينقصك أن تحزن.. لتعيش"، قالتها بلهجة درامية.. ولم أفهم وقتها ولا بعد الامتحان، فأنا لعمري حزنت كثيرًا ولم أعش! وعلى العكس ربما عشت في هروبي إلى عملي، الآلات والأجهزة، صادقة حد الوضوح، فالعطل له سبب، ولو أصلحت العطل كما يقول الكتاب لن يعود الجهاز لحالته الأولى أبدًا، ولو وفرت له كل عوامل الحماية سيستمر إلى عمره الافتراضي كاملاً إن لم يتخطاه أيضًا، فالإلكترونيات صادقة، وليست كالبشر، وقلت بعد زمن، كان هذا الرجل ذا حكمة نوعًا ما.. لتعيش في هذه الحياة، لابد أن تهربَ، وألّا تحزن أبدًا، ولا تهاب الموت.

وأنا مثل هذا الرجل الذي لا يحزن، هشًا حد الكسر، وصلدًا حد الصلابة، أخاف الاطمئنان، لأني تفاءلت كثيرًا وندمت، أما عن التشاؤم لم أندم قط، كنت هشًّا وأتظاهر بعكس هذا، هشًّا وأصمت ساعات، تمر كالدهر، وفي صمتي كلام يتجاوز الجدران.

في الفترة الأخيرة، صرت أدمع لأقل المواقف تأثيرًا، ولأقل المشاهد السينمائية دراميةً، وتكلمت مع أحدهم وأخبرني بأن جرحًا عميقًا في داخلي لم يلتئم بعد، وأن رغبة البكاء موجودة، ولا تظهر إلّا باستثارة ما ،كموقف عابر أو مشهد سينمائيّ، ربما كان مؤثرًا، وربما كان تافهًا.. كما سألني أن أحزن وأبكي بحريتي طالما أردت هذا، لكن في مجتمعي يعدون غبيًا من يصارح بمشاعره، ويظهرها كما هي، ويعدون تلوين الكلام ذكاء، فعندهم النفاق دبلوماسية والصراحة غشم، قومي قلبوا الموازين أجمعها.

حين أتكلم مع من يلمس هذا الجرح المدفون أهرب للتو، أهرب إلى غرفتي الشخصية، وأهرب، أهرب إلى فيلم أو كتاب أو إلى كتابة أو قصاصات كتبتها قديمًا أعيد قراءتها للمرة المليون، أهرب فحسب.. ولا أدع فرصة لأحدهم بأن ينبش بأظافره ويعري الجرح القديم، فمازال موجودًا رغم

كوني اجتماعيًا إلى حد بعيد، ولكن في كينونتي أعماقًا كثيرة لم يتطرق لها أحد بعد، ولحوائي كلام كثير، لم أقله بعد.

أنا أحدثك عن جرح ولا أعي حتى كنهه، ولكنني أعلم بوجوده، وأشعر به، هذا الجرح يدمي ويألمني، ولكنني أغطّيه بطبقات تلو طبقات، طبقات نفسية شرسة، وطبقات اجتماعية مروّضة، إلّا أنّ الجرح لم يلتئم بعد.

أحدثك الآن وأنا على المقهى بجوار ورشة الشركة، أتجرع القهوة الصباحية للمرة الثالثة هذا الصباح، وكل مرة أخبر القهوجي بأن يعدها مظبوطة، فيأتي بها سكر زيادة، ولا أعلم لماذا أصر على أن أشرب القهوة في هذا المقهى، ولماذا أصر على دفع بقشيش كبير جدًا بمقاييس البقشيش في المقاهي الشعبية حولي، وحينما حدثت أبي أني أتعاطف معه كون يوميته لا تكفي لحياة آدمية، وربما اعتماده كله على بقشيش أمثالي، أخبرني أبي أنني لست أمه، وليس من المفترض أن أهتم لشأنه إلى هذا الحد، وعزمت الرحيل من هذا المقهى، إلّا أنني لا أرحل، أشرب القهوة الحلوة إلى حد القرف كل يوم، وأنا عمومًا أخبرتك أنني سأفارق أشياء كثيرة، ولا أرحل عن أي شيء، ربما خوف وربما اعتياد، وعندما أفكر بشأن حواء والكينونة والجرح، وأنظر للقهوجي التعس، أدرك كم هي تفاهتي ورفاهيتي وحياتي لا تستدعى هذا

الكم من الكآبة والسفسطة! وأعزم على إنهاء خطابي وهو الشيء الوحيد الذي سأرحل عنه، وأنهيه اليوم ولكن ليس قبل أن أخبرك بأني حزين ولا أحتاج لحزن آخر كي أعيش.

بإخلاص، صديقك الموجود

الإسكندرية

الرسالة الثالثة ـ أنا ضعيف

سعيد:

قرأت رسالتك، ولشد ما أدهشني أني تأثرت بكلام من العدم، وكنتُ أظنّ أني لم أعدْ أتأثر بشيء منذ زمن بعيد عدا بعض المشاهد البسيطة والمواقف الأبسط، التي حدثتك عنها في خطابي السابق، بالمناسبة لا أعرف كيف تُحرّك قلبي كلماتٍ بسيطةً جدًا ككلماتك ومشاهد سينمائية، البعض منها رخيص نوعًا ما، ولا تحركني جل ما أصاب العالم من خبل، أراه وأعايشه كل يوم في النشرة والشارع، وهل قلوب مثل قلوبنا تستطيع العيش في هذه الحياة التي تدهسنا بلا رحمة يوميًا؟! وما هي نوع القلوب التي تتأثر بالأشياء البسيطة؟ فأنا تأثرت بكلماتك، ورأيت فيها نسيجًا من الأمل أعمق مما تكلمت به، يمتد إلى آخر الوجود، وفي هذا النسيج يتلاحم الوجود باللا وجود، والأمل بالبؤس، والراحة بمعاناة بحثي عن معنى.

رأيت في ذاك النسيج معنى أضفت كلماتك عليه بريقًا دام في مخيلتي حتى الآن، إلّا أنّ النسيجَ رأيته رفيعًا جدًا، وقلت هل يتحمّلني هذا النسيج لأتسلقه؟ هل يتحمل الثقل الجاثم على صدري كقولك؟ هذا النسيج رآه قبلي كثيرون، منهم من تسلق بروية حتى بزغت شمس من وراء جبال الألم، حتى بات اللامعقول وعبث دنيانا وما وراء تلك الجبال أشبه بالبعث بعد

عناء البحث المرير، ومنهم من ظل في الطرقات، وعاش في أزقة عقله يتوارى دائمًا خلف الروتين في غرفته المغلقة المظلمة، لأنه يعلم أنّه لو خرج؛ لتألم كثرٌ لرؤياه ورؤية الحقيقة، كان يتألم هو بالأكثر، فأنا ما زلت أتسلق لأبني أخاف الغرف المغلقة، وأخاف التواري، ولا أعلم هل تتحملني طاقتي لصعود جبال أرى على قمتها شمسًا تحدثت عنها في خطابك؟!

قرأت قصةً لشاب، لا أذكر تفاصيل قصته ولا تفاصيل شخصيته، ولكن ما أذكره جيدًا التناقضات التي ظهرت في عقله، لظرف قصير جدًا، ورأيته حينها يرقص طربًا لدقائق، ثم يعتصر وسادته ألمًا وبكاءً.. الحق كان قلبه ضعيفًا، إلا أنه كان صادقًا، صادقًا حد الهشاشة، ولم يستطع هذا الفتى العيش طويلًا، ليس لأن عضلة قلبه ضعيفة جسمانيًا، بل لأن قلبه الصادق لم يتحمل نفاق العالم وعبثه، وقلت: إنّ العبرة بأن القلوب الضعيفة، كقلوبنا يا سعيد، لن تستطيع العيش؛ إذ يلزم قلوب صخرية حجرية للعيش في دنيانا.. وهل تعلم ماذا قررت؟ عزمت على أن أكون شخصًا صادقًا مع نفسي، متسقًا مع ذاتي، حتى لو لم يحتمل العالم هذا القدر من الصدق، وحتى لو لم يحتمل قلبي نفاق العالم وعبثه.

لا أستطيع التحليق بعيدًا عن هذا العالم، ربما أتسلق نسيج خطابك كحبل سري أتغذى منه على أشياء بسيطة ككلماتك، كألوان اللوحات القديمة الباهتة، كحضن طفل صغير، كنظرة خائبة لصياد يشكو للبحر ولا يجيبه، أما عن الناس فأنا لا ألتمس لهم أيَّ عذر مثل رؤيتك الثاقبة، وقلت في سري: حينما حدثتني عن معاناتهم، فليذهبوا إلى الجحيم.

لا تتردد في إرسال خطاب آخر إن أردت.

صديقك الضعيف

الإسكندرية

الرسالة الرابعة – أنا أتعافى

سعيد:

ما تفعله قاسيًا، فأنت تعري طبقات غطيت بها جرجي، طبقة تلو طبقة إلى أن يظهر للنور، ومن ثمَّ أعرفه أنا على التحديد قبل أن تعرفه أنت، هو يتطهر ويلتئم إلى أن اتماثل للشفاء، وهذا ما كنت لا أريده حقًا، على أنني لا أشعر بقساوة كلماتك إلّا أنها قاسية، قسوة من نوع آخر، قسوة مشرط الطبيب في علاج جرح قدم السكري، قسوة نور الشمس حينما تستقبلها عينا طفل استيقظ للتو، وأنا أعرف سبب القسوة في كلماتك الرقيقة، وهو كونها رقيقة حد التمزع، إلّا أن قلبي هو الذي يتمزّع كقشرة خارجية إلّا أن يظهر قلب دفنته مذ زمن بعيد.

وأنا أقول: لم أكن أريد ذلك، ربما لأني اعتدت حجرتي، التي لا أود الخروج منها ابداً، لماذا؟ لا أعرف، ولكن لربما إنها صادقة في حبها، فهي تحتضني من دون مقابل، من دون شروط، في غرفتي تتناثر الكتب ومذكرات الكلية، مكتبتي وهي بالمناسبة قطعة مني، صور لعائلتي على شاطئ سيدي بشر بمنتصف التسعينيات، جهاز الكمبيوتر الشخصي وكلّ ما به من موسيقى تأخذني لعوالم أخرى، صرت فيها حبيبًا مرة، محبوبًا مرة، مفتفدًا لحبيب مرة، تاركًا حبيبه مرة، حائرًا، مهتديًا، سعيدًا، حزينًا، وإنسانًا دائمًا، إلى جانب أفلامي المفضلة، وغرفتي لا تسألني أن أهتم لها، وسريري لا يتقوقع ويمتنع عن

احتضاني بسبب كوني مهملًا في تشميس البطاطين أو غسيل ملاية بصفة دورية، هل لا أود الخروج كون غرفتي صادقة، وإن أدرت مقبض الباب سأغرق في غمر أمواج النفاق اللا نهائية؟!

أقول لك هذا وأنا أشعر إني منافق حد الاشمئزاز من نفسي!

عمومًا، أشعر بالصدق الكامل في كلماتك، وربما استحال وجودك من العدم كونك صادقًا.

وكونك ترسم وجهي من خلال كلماتي، يجعلني في حيرة، كيف ستنجح في فك طلاسم شخصيتي من تناقضات إن كنت أنا لا أعي ما بداخلي على وجه الحقيقة وعلى وجه التحديد؟

وما يقلقني أنني استجيب لنبرة تفاؤل بخطى حثيثة، وكنتَ ظننتني لن أفعل.

أنت صادق فاكتب.

صديقك، الذي بدأ يتعافى...

القاهرة

الرسالة الخامسة ـ أنا أعتاد

سعيد:

بغتةً خرجت من العدم ثم رجعت له مرة أخرى، إلّا أني مدينٌ لخروجك القصير جدًا، الذي حاولت فيه جاهدًا، تعيد النور لأماكن قد تخللها الظلام لا محالة، وأخاطبك بخطاب آخر عن أشياء لا علاقة لها ببعضها البعض، إلّا أنها تدور في رأسي، اعلم أنها تخرج من رحم المعاناة وأعلم أنها توأد كتابتها للتو في أوراق هذا الخطاب وفي موتها نوم وقتي وكأنما بعد كتاباتها تعلن قيامتها مرة أخرى على ألحان ترانيم كنسية، وتأخذ جسدًا نورانيًّا كخليقة جديدة، وتمهلني بضعة أنفاس أخرى أستنشق فيها أملًا في أفضل.

أشياء أكتبها في هذا الخطاب وخطاباتي الآتية عن الخوف والله والمصير والمعنى والألم والرجاء وعن موت المعنى على سرير الظروف.

سعيد.. في حياتي خفت من أشياء كثيرة إلّا أني لم أفكر مرة أن أخاف من الاعتياد، الاعتياد يسرق منك كل شيء، ويترك لك روتينك الغبي، أن تعتاد هو أن تفقد لذة ألوان الرسومات الفرعونية، ألّا تدمع لموت أحدهم أو لأخبار النشرة، أن تعتاد أن تعد الأيام حاسبًا إياها متى تنتهي، لعمري لم أخاف الاعتياد مثل تلك الآونة.

والاعتياد أنواع، وأبشعهم اعتياد الفقد، فقد الأشخاص والأشياء والأماكن والمقتنيات والقصاصات وأنابيب أقلام الجاف وبقايا البرايات وتيشيرتات الذكريات، فقدان الذكريات ذاتها، حتى نفسك تعتاد أن تفقدها،

تفقد ما تحبه، تبتعد عن القهوة لأنك سأمت الكافيين، وتبتعد عن الكولا لأنك صرت تحسب السعرات، وتبتعد عن مدينتك وعن أهلك وأصدقائك ورويدًا رويدًا لا تعرف من أنت، ماذا تحب وماذا تكره، ما نسبيتك في تعريف والحب والشغف والرحمة والحزم وغيرها من القيم الإنسانية، التي صرت تحكم فيها كما عامة البشر كنسخة كربونية باهتة مكررة.

أن تعتاد هو أن تموت ببطء، فالطبيعة لا تعتاد، تتطور وتنطلق من طور لآخر، ودودة القز لا تزحف طول العمر، لكن الآلة تعتاد، تعتاد العمل والدوران؛ حتى تنكسر لأن أجزاءها الميكانيكة لا تحتمل، كتيه بني إسرائيل في دورانه 40 عامًا، وأنا لعمري لم أكن أخشى الاعتياد مثل هذه اللحظات، وأخشى ألّا تحتمل أجزائي الميكانيكية أكثر، الحياة بحلوها ومرها، تنطلق من أسفل نقطة للمنحنى لأعلاه، وأنا أعتدت الخط المستقيم، أعتدت الفقد والسبات والكلام والناس والطرقات والسفر، والفقد أنواع، أن تفقد أحدهم، أن تفقد حلمك وأن تفقد شغفك، اكتب تلك الكلمات وأتذكر تلك الخطبة الخالدة لشارلي شابلن.. أنتم لستم آلات، أنتم بشر!.. وأتساءل متى تحولت هذا التحول!

أجلس في مكتبي لوقت متأخر؛ محاولًا إنجاز عملي الذي تجاوز الساعة التاسعة مساءً، أقرأ مقالًا لجيم كاري الذي فقد نفسه، ممثل أنغرس في تقمص شخصية لممثل آخر كدائرة، إلّا إنه لم يستطع الخروج منها، كتيه اليهود حول

الجبل، ولكن جيم خرج من التيه بعد شهر من إنجاز فيلمه الشؤم الذي قلب حياته رأسًا على عقب، فبعد أن تعافى؛ استغرق وقتًا طويلًا محاولًا استيعاب من هو جيم، ومن هو كاوفمان الذي حاول تجسيده، ما كان يعجبه وما كان لا يعجبه قبل التحضير للفيلم، ما هي قناعات هذا وماذا تختلف عن قناعات ذاك، بماذا يؤمن؟! وما الإيمان بالنسبة له، وحتى لما وصل لإجابة احتار أن ينسبها لجيم أم لكاوفمان، وأخيرًا.. استنتج أنه طالما استطاع الخروج من جيم لمدة تصوير الفيلم وفترة بعدها، فبالتالي جيم غير موجودٍ، وغير ثابتٍ، وهي الحقيقة الأزلية التي طالما حاولنا الاختباء منها، وإن كان خرج من العدم فكيف يوجد، وهل المعنى رهن الوجود وإن كان كذلك، فما هو رهن وجود المعنى من الأساس، أشعر بنفسي في تلك الدائرة، وأشعر بك أيضًا تدور معي إلا أنك مختلف في إنك أنت وأنا نعرف سر عدمك من وجودك.

أفكر في كل ذلك وأسمع الأغنية تقول: "عندي كلام وحاجات.. فين دمعتي يا عين.. بيريحني بكايًا ساعات.. بيريحني بكايًا ساعات"، وأتذكر سؤال صديقي عن المعنى، هل هو ثابت أم نحن ما نخلقه، فجاوبته بكل أريحية .. "نخلقه!" ثم استطرد .. هل تعي حجم الكارثة، وأهز رأسي في ثقة وأخبره بأني لا أعتقد أنها كارثة؛ إذ إني أحببت أن يكون المعنى من اختياري،

أنا الذي أقوم بعملية الخلق، وربما كانت حرية اختياره هو من صميم خواص المعنى أو أقنوم له.

سأنهي خطابي إلّا أني أعدك أني في الأيام القادمة سأتخلى عن كل ما يثير إحباطي من أخبار المستنقع، الذي نعيش فيه، وسأحاول الطيران من دون أجنحة وَفق نصيحة العسيلي وعدوية، وحينما صارحني أحدهم أني سأكون مثل النعامة، أدفن رأسي في الرمال محاولًا أن أتجاهل كل الخراء الذي يحدث حولي، فإنني لا أحاول أخذ خطوة إيجابية.

أحببت فكرة النعامة جدًا، وقلت: أحدهم يأخذ الحكمة من النمل، وأنا آخذها من النعامة، وأحببت فكرة دفن رأسي في الرمال، حتى أنني فكرت في تجسيدها حرفيًا في أحدى أيام المصيف لو قدّر! وأحاول أن أعيش شعور النعامة متوقعًا أنه الأفضل، وربما وقتها أنظر للاعتياد نظرة أخرى! من يعلم.. !!

صديقك الموجود

القاهرة

الرسالة السادسة – أنا بخير

سعيد:

أكتب إليك خطاب آخر مملًا كعادتي، ولن ألتمس العذر لغيابي الفترة الفائتة، فنحن اتفقنا على التماس الأعذار مسبقًا، كما أنك لن تهتم على أية حال سواء راسلتك أو لم أراسلك، غبت أو كنت متواجدًا، إلّا أنه من باب الإطراء، أود لو أعلمك بأني أحببت مراسلتك، فكونك صديق وهمي كنت أفضل ألف مرة من الموجودين، وعدم ردك وصمتك الدائم يخلق بداخلي نوعًا من الرضا الدائم، فأنا أتحدث وأنت تستمع، وهذا كل ما أريده، فشكرًا لك مرة لأني استحدثتك من العدم، ولم توجد ومرة لأنك من العدم تسمعني. ولا أخفيك سرًا أنّ الصدق بيننا هو ما يجعل للصداقة معنى، فأنا كنت صادقً معك دائمًا، واضحًا، وأنت كذلك. إلا أن صديقًا لي أخبرني بأنه ليس من الصواب أن أكون صادقًا إلى هذا الحد، أو قل دائمًا، وقال لي أيضًا: إنّ عالمنا هذا لا يتسع للصادقين، الأمس قرأت أنّ موظفًا لأحدى الشركات في قسم التوظيف واجه أحد الشباب المتقدّم لوظيفة في مجال تقنيّ معيّن، ولما واجهه بأسئلة فنية عجز صاحبنا الشاب عن حلها، أخبره موظف الشركة بأن مستواه الفني لا يسمح له بالقبول، عندئذ أخبره الشاب بكل صدق، بأنه يعلم أنه مبتدئ إلّا إن هذا المجال مازال منطقة بحث بالنسبة له وأنه عنده الشغف بالقدر الذي يجعله مؤمنًا أنه في يوم من الأيام وإن سنحت له الفرصة سيحقق تقدمًا كبيرًا في هذا المجال.

وجد الموظف أنه صادقٌ إلى الحد، الذي يسمح له بقبوله وتوفير له الفرصة؛ ليثبت عزيمته في التعلم والتقدم، أما أنا أذكر أنني لما اجتزت مثل هذه المواقف وأكثر وأجبت بكل صدق وتعاملت بكل شفافية كان مصيري الرفض.. دائماً كان مصيري الرفض.

أكتب إليك هذا وأنا أعي جيدًا أن حيل نفسية كثيرة تستبد بعقلي، منها أن أندب حظّي، على هذه المواقف وأحمل ذنبًا فوق طاقتي وأتلذذ بالألم.. نعم للألم لذة، لأنه يجعلك تشفق على ذاتك، وذاتك – أي ذات – تحتاج للشفقة، وستأخذها منك، إن لم تجد من يشفق عليها، هل سمعت أغنية مُحَمَّد محي "مظلوم" الواقع لا يختلف كثيرًا.
ومن الأشياء المضحكة أيضًا لما سمعت لأحدهم يقول: "لست دائمًا مظلومًا، في رواية أحدهم أنت ظالمًا"، وأنا تفكرت في مثل هذا، في رواية أحدهم أنا ظالم، انطوائي، معقد، قليل الذوق أو كئيب، وربما في روايات أخرى أنا مبدع، مرح، بشوش، ملتزم، عطوف، إلا أنني أعي جيدًا أن هذا كله هو أنا والحقيقة هو أنت أيضًا أو أي إنسان طبيعي، كما أن أحدهم أخبرني ذات مرة أن أترفق بنفسي نوعًا ما، وتابع، أنّ العالم ليس مثاليًا؛ لدرجة الكمال.. لتكون مثاليًا أنت الآخر، من الطبيعي أن تخطئ والخطأ، يزيدك خبرة لئلا تخطئ مرة أخرى، وبين تجاعيد الوجه تقبع خبرات وآلام السنين.

أما أنا وقد حدثتك مرة سابقة عن مسطرة القياس – لو كنت تتذكر – لقياس أبعاد الشخصية على كمال الصفات، وأظن أني وجدت هذه المسطرة، تبدأ بصفر البداية على أية حال، وتنتهي لما وصلت إليه، أي أن أبعاد المسطرة تتغيّر، وتتشكل حسب خبراتي وما اجتزته وما سأجتازه، وأسمح لي بأن أخبرك ما وصلت إليه، أنا إنسان له مشاعر وقلب لحمي وأسعى للكمال رغم الضعف الطبيعي وهذه نتيجة مُرضية بالنسبة لي، أخبرك بهذا وأنا أسمع السيمفونية الخامسة لبيتهوفين، لم أقرأ أي شيء عنها إلّا إني أرى فيها ترقب القدر لو جاز التعبير، ربما هي حديث الملائكة مع الشياطين، الصراع الأزلي بين الخير والشر، منذ قليل كنت أتمشى بشاطئ الفندق الذي يبعد عن عملي الحالي نصف ساعة على خليج السويس، ربما كان بإمكاني رؤية أنوار بعيدة لشاطئ سيناء على الضفة الأخرى، أو ربما أنوار سفن لا تتحرك، لا أدري، إلا أن أجواء يناير مع رائحة البحر التي ليست كرائحة بحر الإسكندرية على أية حال، أصابتني بالدهشة لثوان معدودة.

النجوم من أعلى، رأيت فيها اتحاد الكون مع نفسي، رأيت في البحر والسماء والكون ونفسي القوة ذاتها والقصور ذاته، انطباع الجمال على وجه المياه كانطباع روح الله فيَّ، ورغم الألم حمدت الله على قلوبنا التي لها أن تشعر، أخبرتك في خطاب سابق أيضًا أنّ لي قلب لا يتناسب مع قسوة الحياة، إلّا أنني – الآن – أشعر بقوته، وأتمنى لو أظل كذلك دائمًا، ربما هذا ما أراده أن

يخـــــــــــبرنا بـــــــــــه بيتهـــــــــــوفن! لا أعلـــــــــــم...

عزيزي سعيد، أنت صادق، فسأظل أكتب لك. وتذكر دائما ... أن قوة القلوب في رقتها.

صديقك الموجود

السويس

الرسالة السابعة – أنا أهذي

سعيد:

مساء الأنوار..

الغرفة ليست لها معالم الغرفة، كهف مكيف.

سلة الملابس التي تحتاج للغسيل ممتلئة عن آخرها، التلفزيون لم اقترب منه منذ جئت، القمر كان بدرًا منذ يومين، الآن، هرم في صورة هلال.

عندي قمر بسهر معاه

ندي معاد وحبيبي نساه

عندي حضن يسع الكون

ريقي نشف والحب رواه

القمر يأخذني كالنداهة، أجري إلى أن أصطدم بالبوابة، وقتها أتساءل ماذا أتى بي إلى هنا؟ ومتى؟ أنبعث ذلك الضوء النجمي الذي ينير الطريق في رحلته الأولى؟!

اسأله عن كروت شحن للشبكة الخرقاء، يوصف لي الباكالا، حدسي يخبرني أن الباكالا هو البقالة أو السوبر ماركت. منذ جئت إلى هذا المكان وأنا أخمّن الأشياء، كإنسان أول يستأنس الطبيعة لأول مرة.. الباكالا يبعد

المائة متر، كمائة من السنوات الضوئية، لم أعد أندهش لكثرة الجنسيات، واللغا والألوان.

لحن شجي لقطرات ماء تصدر لحنا يطابق do do fa mi do ..

.... la do re do do تستمر وتستمر.. ماسورة صرف انكسرت.. أو بالأحرى وجدت عملًا ثانيًا أكثر ابداعًا.. غطاء بني بشع يلف قدمي المنهكتين.. كتب هنا.. جوارب مخططة هناك.. (أحب الجوارب المخططة).. بقايا أكواب القهوة.. قشور موز.. أكياس فارغة.. فردتا حذاء تتحاوران.. كتاب هدية.. كتاب مستعار.. كتاب فلسفة.. كتاب ديني.. حشرة صحراوية (أخاف الحشرات جدًا).. الفراغ.. الفراغ.. لا سجاد.. الباركيه لونه لون البطانية.. الرابعة فجرًا على الارض.. المريخ وعطارد يتململان.. نجمتان تبدوان متقاربتين لكنهما بعيدتان.. بعد الأمل عن الواقع.. الأولى تلمع، والثانية تردد اللازمة عبر الفراغ.. القمر جميل الليلة.. أتساءل .. لم أسهر.. هراء.

حالي مع النوم – الآن– كحال فيروز:

"اذا رجعت بجن .. وان تركتك بشقى .. لا قدرانة فل .. ولا قدرانة ابقى"

يخطر لي ان أحلق ذقني أو أؤجلها لحين انتهائي من عبثي اليومي المعتاد.

صوت الغلاية يأمرني بالقيام لإعداد الشاي.. لا أقوى على القيام، لكني أشربه؛ ليخفف من حدة احتقان حلقي، في الزور درجة الحرارة أعلى ما يكون، ولكني اعتدت الحرارة كاعتيادي الناس والنجوم.. حرارتي لم تنزل عن الأربعين درجة طوال أسبوع، لم أتوقف فيه عن العمل.

في خطاب آخر سأخبرك عن القمر، وعن الوحدة، وعن آلام الزور.

معسكر KLNGI – منطقة الزور – الكويت

الرسالة الثامنة – أنا بخير جدًا

سعيد:

صديقي لاحظ عليَّ التغير، وكان من الصعب أن يفهم، هل تغيرت للأحسن أو للأسوأ..

– تسألني كيف حالك فأخبرك: أنا بخير والأمور عال العال.. أصبحت متفائلًا جدًا ولا أنتظر أبداً الموت، لم أعد أقرأ للمتشائمين، وأغلقت باب الأسئلة، وتعلقت أكثر بالأبراج وبحسن وسوء الطالع.. أشتري أشياء لن استخدمها أبدًا وأجرب مشروبات لن أحبّها إطلاقًا، أصادق أناسًا ولا أتعلق بهم، لم يعد للامتلاك السطوة ذاتها عليَّ، ولم يعد هناك حنين بصورته الأولى.

"أحنّ إليك، لا يسعني مكابدة ألم غيابك"

لا تصدقني حين أقول لك عال العال؟ الأمر نسبي، ما تراه لا أراه أنا وما أراه لا تراه أنت، في الأمس نظرت للمرآة، وتحسست لحيتي التي تعطي انطباع الكآبة لمن حولي، فاختلطت دموعي بمعجون الحلاقة، كاختلاط شكي باليقين.

المحب بالأكثر يشك قليلاً والمحب بالأقل يشكّ كثيرًا، سال دمع أكثر لحظة سماعي لذلك، فلطالما ظننت أني أحببت بالأكثر.

اليوم، حين رأى ذقني حليقًا تهلل، وسألني كيف الحال؟ أخبرته: عال العال جدًا.

ماذا أفعل في يومي؟ أتعامل مع أشباه الناس، ولا أشكو أحدًا، ويشكوني جهازي العصبي حتي أريحه من ملل المناقشات والمناوشات، لا جديد فقط اعتدت العمل إلّا أنّه لم يعتدني.

أنهي عملي واضع جهاز الكبيوتر وهموم اليوم في حقيبة الظهر لليوم التالي.. السائق العربيّ يخبرني بالمشاكل السياسية بين الكويت وسلطنة عمان، والمشرف الكوري يسألني عن الخمر في مصر، وصديقي الهندي يشكو لي جفاف النهر في بلاده، وكيف قطعوا النخيل ليزينوا به فيلات الأغنياء.. أنظر للصحراء والقفر، وأرد عليهم بأن في مصر خمر ونخيل وصحراء لكنها تفتقر المنطق الذي يجمع الثلاثة.

أدخل غرفتي التي هي ناري وجنتي معًا، جنة اليقين ونار الوحدة، قهوتي لها مذاق مختلف عن كل مرة، وكل مرة يكون لها مذاق مختلف، أسأل نفسي "متى حدث كل ذلك؟" وفي الأزمنة أعيش حاليًّا.. و"هل فعلًا عصرنا يختلف عن العصور الأخرى؟ أليس هو نفس الإنسان ونفس الحب والكره؟ هل تختلف المشاعر بعد العجلة عن قبلها؟ يتخللها – الأفكار والوحدة والقلق والملل – بضعة مكالمات هاتفية أخبرهم فيها أني بخير وعال العال.

تسألني عن الحياة؟

تستمر محاولات التعايش بتنظيم الأسئلة والارتباك، فلم تعد الحيرة تستحوذ كل يومي كما كنت، صرت حريصًا ألا تكون وقع كلماتي صعبة علي الجميع، وصرت أستصعب الكره مهما حدث، فلم أعد أرى أن هناك ما يستحق الكراهية والسخط، وصرت أكثر طموحًا وصرت عمليًا جدًا، كل هذا ولا تصدقني حينما أقول لك: إني بخير؟

صرت أكثر تعاطفاً مع من يتألم واضعًا نفسي مكان ألف منهم، وصارت معظم مدخراتي للمحتاجين، لقد صرت أكثر إنسانية عن قبل، ألا ترى ذلك معي، لقد وجدت أن العطاء هو العلاج، نزعتي الدينية التي ولدت عليها، تخبرني بذلك.. الموت؟ لا أعلم، أحيانا يخيل لي أنه غير موجود.

أخبرني صديقي أنّه لا يفهم! لكن الموت موجود وهو الحقيقة المطلقة والمؤكدة، وهم أن يقول شيئًا آخر قبل أن أقاطعه قائلًا: "صدقني أنا بخير".

معسكر الطاووس – سلطنة عمان

المحتويات

4 .....

على سبيل التقديم 5

البحر والحلم 5

البؤساء في الأرض 11

تأثير البشاميل 11

القدر 17

وقرية الدشت 21

الغريبة 25

28 .....

الصياد 29

المرأةُ التي التهمت نفسها 33

بائع الحلوى 37

قيصر والتفاح 41

حانة وسط البلد 47

الليلة الأولى – صلاة الحانة 47

الليلة الثانية - على حافة الكون 51

الليلة الثالثة - في أمعاء دب قطبيّ 55

58 .....

الليلة الرابعة - الكوب المكسور 59

62 .....

أبطال من ورق 63

الرجل الذي حلق بطائرته الورقية .....
الرجلُ الذي أبحرَ بسفينةٍ ورقيّة .....
رسائل البحر .....
الرسالة الأولى – أنا لست بخير .....
.....
الرسالة الثانية – أنا منهك .....
الرسالة الثالثة – أنا ضعيف .....
.....
الرسالة الرابعة – أنا أتعافى .....
الرسالة الخامسة – أنا أعتاد .....
الرسالة السادسة – أنا بخير .....
الرسالة السابعة – أنا أهذي .....
.....
الرسالة الثامنة – أنا بخير جدًا .....

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر
دار نشر – دراسات – استشارات – دورات تدريبيّة
الإسكندرية، مصر، 44شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية
موبايل: 0020103003691 – هاتف: 034830903
بريد إلكتروني: levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net
مركز ليفانت أحد فاعليات شركة ليفانت لتنمية الموارد البشريّة، ش. د. م. م. وفق قانون 159 لسنة 1981م ولائحته،**ب. ض: 03– 11– 520– 00408 –5– 022**،
س ت: 9882.
يقيم المركز دورات ثقافية وتعليمية متنوّعة وورشات عمل وندوات ومحاضرات...، ويستثمر في تطوير الموارد البشريّة وتنميتها، ومن ثمّ فهو يهتمّ بإعداد باحثين في مجال الدراسات الثقافيّة تطبيقًا على علم الكوديكولوجيا وتحقيق النصوص التراثيّة وعلوم العربيّة وآدابها وتجديد الفكر الدينيّ، كما يهتمّ بأصحاب المواهب في الكتابة السرديّة والمسرح والسينما والسيناريو، وينشر أعمالهم ورقيًّا وإلكترونيًّا.
وتدير إدارة المركز موقعًا إلكترونيًّا شاملاً نشاطاتها كلّها، علاوة على إتاحته تحميل الكتب والمقالات والفيديوهات المختلفة.
وينشر المركز المقالات والكتب ورقيًا وإلكترونيًّا وفق عقد مع أيّة مؤسسة أو مؤلّف إفراديًّا.
رقم الإيداع: 2020/15605م
الترقيم الدولي: 978 - 977-6815 - 32 -2
للتواصل مع المؤلف: magdyusef93@gmail.com